أغرب من الخيال

راجي عنايت

جماعات وعقائد عجيبة

جماعات وعقائد عجيبة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٨١٧٢١٣ - ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



جماعات وعقائد عجيبة

دار الشروق

مقدمة

عندما يبيع الإنسان عقله وحياته!

ونحن نتأهّب لدخول القرن الحادى والعشرين، ونتشغل بالتفكير فى نوع الحياة التى نحن مقبلون عليها، وأفضل السبل فى الإستعداد لها. . فى أكثر دول العالم قوّة وثراء، وتطوّرا تكنولوجياً، فى الولايات المتّحدة الأمريكية، وفى أكثر ولاياتها إزدهاراً، ولاية كاليفورنيا الواعدة، قبلة مختلف الأجناس من مختلف القارات. . جرت أحداث الواقعة المفجعة التى تنازل فيها ٣٩ شخصًا، من أتباع جماعة "بوّابة السماء"، عن عقولهم، وقبلوا -بمحض إختيارهم- أن ينهوا حياتهم، بطريقة مسرحية مأساوية!.

هذه المأساة المفجعة، وهذه الهزيمة القاسية لآفاق تطوّر العقل البشرى، ليست الأولى من نوعها، على مدى تاريخ البشر، وهى بالقطع ليست الأخيرة. فقبل «بوّابة السماء»، يحفظ لنا تاريخ هذه الجماعات، ما لا حصر له من الجماعات متنوّعة الأهداف والعقائد والأساليب، بعضها مسالم والبعض الآخر دموى. . وقائمة الأسماء العجيبة لا نهاية لها: معبد الفجر الذهبى- ملائكة الجحيم- عصبة الكشف الروحى-

السفّاحون- الحشّاشون- فرسان الهيكل الماسونيون- هار كريشنا- سوكاجاكاى، إلى آخر ذلك.

لماذا تقوم هذه الجماعات؟ . . ومتى؟ . . وكيف؟ . . هذا هو ما سنحاول الإجابة عنه فى هذا الكتاب الجديد من سلسلة «أغرب من الخيال».

راجى عنايت

(١)

بوّابة السماء القاتلة

ومن الطبيعى أن نبدأ رحلتنا بآخر مآسى هذه الجماعات، أو الطوائف، أو الفرق، جماعة «بوّابة السماء».

لقد اهتمّت جميع وسائل الإعلام وشبكات الإنترنيت بالواقعة، وأوردت تفاصيلها الدقيقة.

وسنحاول هنا أن نوردها باختصار شديد، لكى نشير إلى السمات المشتركة بين هذه الجماعات، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى تساعد على قيامها، وعلى تكاثرها.

فى السابع والعشرين من مارس ١٩٩٧، تم العثور على جثث ٣٩ رجلا وامرأة، كلّ جثّة مسجاة على فراش خاص، كلّها حليقة الرأس، وفى زىّ ووضع موحدّ. وكان هذا هو أحدث انتحار جماعى لجماعة أو طائفة "بوّابة السماء".

قائد هذه المجموعة، والذى كان من بين المنتحرين، ولد عام ٦٦ بولاية تكساس، وكاد أن يعمل فى سلك الكهنوت كأبيه، لكنّه اختار أن

يدرس الموسيقى. ثم عمل فى فريق للغناء الأوبرالى، بالإضافة إلى تدريس الموسيقى. ويقال إن نقطة التحوّل الأولى فى حياته، كانت إقامته علاقة جنسيّة شاذة مع أحد تلاميذه، كان لفضحها تأثيره على حياته العائلية والعملية. وضاعف هذا من حالته العقلية المتأزّمة أصلا، مما قاد إلى دخوله إحدى المصحات العلاجية، حيث التقى بنقطة التحوّل الثانية، فى صورة ممرضة، توافقت شطحاتها العقلية مع شطحاته.

تزوّج أبلوايت- وهذا هو اسمه الأصلى- من الممرّضة، زواج عقيدة وليس زواج المعاشرة، فقد كان كلّ من الزوجين يؤمن بأن الجسد هو العدو الحقيقى لكل باحث عن السمو والارتقاء. وتأكيدا لهذا، قام أبلوايت بإخصاء نفسه! .

صفحات على شبكة الإنترنيت

عندما وصلتنى أخبار هذه المأساة، لجأت إلى شبكة الإنترنيت باحثا عن التفاصيل، فعثرت على العنوان الخاص بالجماعة فى الشبكة، اطّلعت على تفاصيل الأفكار الغريبة، التى جرى تلفيقها من كلّ صوب وحدب، على صورة العقيدة التى أودت بحياة كلّ هؤلاء البشر. خليط من العقائد الدينية وغير الدينية والأحداث الفلكيّة، والأساطير القديمة والحديثة، التى جرى تفسيرها على هوى ذلك الرجل.

هذه الصفحات التى سبقت واقعة الانتحار الجماعى، يتصدّرها

رسم أنيق ملوّن، يحمل اسم الدعوة «بوّابة السماء» الصفحة الرئيسية والصفحات الفرعيّة كلها ظهرت على شبكة الإنترنيت قبل بداية عام ١٩٩٧ . الخبر الذى تزفّه الجماعة لجماهيرها ، هو اقتراب المذنّب هال- بوب ، باعتباره من «العلامات» التى كانت الجماعة ترقّبها ، وإشارة إلى أن سفينة الفضاء القادمة من «المستوى فوق البشرى» فى طريقها لتأخذ أفراد الجماعة إلى «عالمهم».

وتقول الجماعة : «سنوات دراستنا هنا على كوكب الأرض ، البالغ عددها ٢٢ سنة ، قد وصلت أخيراً إلى غايتها . . (التخرّج) فى مستوى التطور البشرى . إذا ما أتيح لك أن تدرس المواد التى على صفحتنا فى الشبكة ، نأمل فى أن تفهم فرحتنا ، وغرض وجودنا على الأرض . بل ربما تجد (جواز سفرك) ، الذى يتيح لك أن تغادر معنا . . » .

الرحلة المكوكية بين العوالم!

على إحدى الصفحات ، شرح قائد هذه الجماعة ومفكّرها تاريخها من البداية إلى النهاية . ويبدأ هذا التاريخ بقوله : «فى بداية السبعينات ، تجسّد شخصان ، أنا ورفيق مهمّتى ، قادمان من مستوى التطوّر فوق البشرى ، فى هيئة جسدان بشريّان ، كانا فى الأربعين من عمريهما . وقد دخلت أنا فى جسد الذكر ، ورفيق مهمّتى -الذى كانت له الأقدمية عنّى فى المستوى فوق البشرى- دخل فى جسد إمرأة . » . ويستطرد شارحا بأنهم يعتبرون هذه الأجساد البشرية " مركبات " ، يدخلون فيها لتأدية

واجبهم بين البشر. وأن هذه الأجساد كانت مجهّزة، ومتروكة جانبا منذ ولادتها، لتكون في خدمتهم!.

ويواصل مهندس المأساة شرح رحلته المكوكية بين العوالم، فيقول:

«لقد اصطحبنا معنا إلى الأرض، طاقماً من التلاميذ، ممّن عملنا معهم على الأرض في مهامّ سابقة. وكانوا على درجات متباينة بالنسبة لمستويات تطورهم، من عضوية المملكة البشرية، إلى عضوية مستوى التطوّر فوق البشري».

ثم يقول: «يبدو أننا وصلنا مجال الأرض بين الأربعينيّات والتسعينيّات، بتوقيت الأرض». وهو يرجّح أن العديد منهم وصل إلى مجال الأرض بواسطة مركبة فضائية (طبق طائر)، تحطّم على جسم الأرض، وقد عثرت السلطات البشرية، ممثلة في الحكومات والجيوش، على أجسادهم المؤقّتة الخنثى (أي لا ذكر ولا أنثى).

ويمضي في وصف التفاصيل الدقيقة للرحلة إلى الأرض، فيقول «ونحن نشعر أنه عندما كنّا (خارج الأجساد)، فيما بين الوصول وبين التجسّد، جرى إمدادنا بمعلومات مكثفة، وجرى أخذنا في رحلة ممتدة لأماكن وأحداث، يمكن أن تساعد كلا منّا في عملية تجسده، وفي إدخال عقولنا وإدراكاتنا إلى مركبة الجسد والتخلص من العقل البشري في الأجسام التي دخلنا فيها، والتي سيستخدمها كلّ واحد منّا».

عدم احترام العالم ونظمه

هذه الأفكار والتعبيرات، قد تثير سخريتنا وتهكّمنا، لكن الذى لاشك فيه، أن مهندس أو مهندسى هذه العقيدة الفاجعة، كانوا على درجة عالية من الذكاء، والقدرة على اختيار الضحايا وإقناعهم بالمنطق الذى يطرحونه، بما يدفعهم إلى التحمّس لعملية الانتحار.

وهو يتكلّم طويلاً، شارحا آليّات وخطط العالم فوق البشرى فى التعامل مع الحضارات التى تتتابع على الأرض، وكيف يتم زرع مخازن «الأرواح» على الأرض، والتى يطلقون عليها (هبة الحياة)، والتى هى جواز المرور إلى مستوى ما فوق البشر.

وعن هذا يقول «ذلك الوقت، يمكن أن نتعرّف على الآدميين الحائزين على مخازن الأرواح، باعتبارهم أولئك الذين يفقدون بشكل سريع ـ احترامهم للعالم و(نظامه).. وهؤلاء تنظر إليهم المؤسسات الدنيوية باعتبارهم غير مسئولين وغير اجتماعيين، وينظر إليهم العالم كأغبياء، وحمقى، وأعضاء فى الجماعات ذات العقائد الغريبة، وانعزاليين.. إلى آخر هذا».

ويمضى بعد ذلك إلى القول بأن الروح أيضا هى مجرّد غلاف للإنسان الجديد، ويكون لها عقلها الخاصّ، الذى يقتصر عمله على تراكم المعلومات الخاصّة بالمستوى الأعلى القادم.

الخطوة الأخيرة القاتلة

وفى النهاية، نصل إلى الخطوة الأخيرة القاتلة. فى هذا يقول «المرحلة الأخيرة من عملية التحوّل، أو الانسلاخ، أو الانفصال عن المملكة البشرية، تتمّ بقطع العلاقة مع الوعاء المادّى للإنسان (الجسد)، للتحرّر من البيئة البشرية، ودخول العالم (التالى)، أو البيئة المادّية للمستوى التالى. وهذا سيتم تحت إشراف أعضاء من المستوى التالى، من خلال إجراءات سريرية. وسيتم اللقاء فى (السحب)، وهى سفينة الفضاء الأم العملاقة، حيث يتم إعلامنا بما ينبغى أن نعرفه، خلال رحلتنا إلى مملكة السماوات المحقّة».

وعن عملية الإخصاء التى تجرى على أفراد هذه الجماعة، يقول هذا المانيفستو الشيطانى الذكى: إنّ المتطلبات تكون واحدة بالنسبة للذين يتوقعون أن يجدوا أنفسهم فى طريق المستوى فوق البشرى: على كلّ منهم أن يتقدم تجاه نبذ كل ما ينتسب إلى البشر من الطرق، والروابط، والأفكار، الإغراءات التى يدمنونها، والسلوك الجنسى، ويتحرّكون من أجل أن يصبحوا مخلوقات جديدة»، وهو يشير إلى عملية الإخصاء بطريقة لبقة قائلا: «بعض الدارسين اختاروا، بمحض إرادتهم، أن يتم تحييد مركباتهم الجسديّة، من أجل دعم إدراك أكثر موضوعية، وأكثر بعداً عن الجنس».

عملاء إبليس على الأرض

وفى محاولة للهجوم على من ينسلخون عن دعوته، بعد انتظامهم فيها، يقول: «يصبح هؤلاء جانبًا من المعارضة للمستوى الأعلى، ويتحول زعيمهم إلى إبليس (شيطان). مثل هؤلاء القادة، ما زالوا حتّى اليوم يحتلّون موقعًا فى السماوات القريبة، وهم الذين يشير إليهم البشر بتعبير كائنات الفضاء أو الكواكب الأخرى. وهم يختبئون أيضاً فى قواعد لهم تحت الأرض، ويساهمون فى العبث بجينات البشر، كما يتزاوجون منهم.. هؤلاء الأباليس بدءوا، من عوالمهم غير المرئيّة فى أغلب الأحيان، جميع الأديان، متنكّرين أمام البشر فى صورة (الآلهة). وهم يقدّمون للبشر الذين يعبدونهم دون أن يعرفوا، كل ما يرغبون فيه من مكاسب ماديّة».

وهو يتهم هؤلاء الأباليس وأتباعهم من البشر، بالترويج لفكرة «الجنّة على الأرض»، و«السلام على الأرض»، ويوقفون سعى الناس إلى مستوى ما فوق البشر بالدعوة إلى حياة صحّية فى ظلّ الأوضاع البشرية. كما يقول إنهم يستمدّون قوتّهم من البشر الذين يمسكون بأيديهم مفاتيح القوّة فى على الأرض: قادة الحكومات، وكبار الأغنياء، والقيادات الأخلاقية التى تستمد قوتها من الأديان المصنوعة وفقا للطلب والحاجة. وهؤلاء معا من خلال «النادى» العالمى الذى يضمهم، يفرضون احتكارهم على البشر.

ويقول البيان: «هؤلاء الأقوياء يحددّون معا ما هو (الصواب)، وما

هو (الخطأ)، لكل البشر. وغنى عن البيان، أن رؤاهم تجعل الأغنياء أكثر ثراء، والساسة أكثر نفوذاً، وتوفّر فى الوقت نفسه ما يلزم من (ضمير أخلاقى)، لتغذية مجتمع لا يشعر بالذنب. وأولئك الذين يفرضون قوانين الحكومات، يحرصون على عدم السماح لأى شىء بأن يؤثر على الأخلاقيات التى يفرضونها، والتى هى فى واقع الأمر ليست أخلاقيّات بالمرّة».

وهم ينظرون إلى أى مجموعة صغيرة لا تستسلم بسذاجة لقوانينهم الاجتماعية، ولا تنظر إلى الحياة من خلال «آليّات التحكّم» التى وضعوها، أو التى تسعى إلى إثارة التساؤلات حول سلامتها وشرعيّتها، أى مجموعة صغيرة كهذه ينظرون إليها باعتبارها مخربة ومتطرفة، ومعادية للمجتمع، وخائنة، وربما إرهابية.

مقايضة مخلوقات الفضاء!

ومن أغرب ما يرد فى ذلك البيان (التاريخى)، قوله: «إن مخلوقات الفضاء، بجماعاتها وأجناسها المختلفة، ترجع صلتها بالبشر -خاصة فى العقود الأخيرة- لعلّة أسباب. وهى تتراوح بين «صفقات» للمنفعة المتبادلة، مثل مقايضة تكنولوجياتهم فى مجال سفن الفضاء مقابل عدم التدخّل فى تجاربهم الوراثية على البشر، وبين ما يقدّمونه من رحلات «التنوير الروحى». ويقول البيان: إن كلّ هذا النشاط، يتم فيما هو دون

السعى إلى «المستوى التالى» بكثير، وأن جهود مخلوقات الفضاء المكثّفة الحالية، تتم الآن فى الوقت الذى تقبل فيه قوى«بوّابة السماء» إلى الأرض.

معركة السماوات

ومخلوقات الفضاء هذه، قد نجحت فى التشويش على مفهوم «الإله» عند البشر، من خلال أديانهم التى فرضوها. وهذه الأديان، كانت تبدأ كعملية تخريب أساسية فى أعقاب كل زيارة للأرض تتم من جانب «المستوى التالى».

و«المستوى التالى»، يكره الأديان، لأنها تربط البشر بالمملكة البشرية، مستخدمة معلومات مضللة قوية، مختلطة بمدارك كونية عن «الخلق»، وهو ما لا تعرف عنه شيئا فى حقيقة الأمر.

يقول «البيان» ونظرا لأننا نقف عند نهاية عصر، فإن معركة (السماوات) مع خدمها على الأرض، ستكون وسيلة إنهاء هذه الحضارة، وجرف نتاجها، بما فى ذلك البشر. والآن، تقوم (الحشائش) باجتثاث الحشائش والتخلّص منها، من خلال حروب العصابات وعمليات التطهير العرقى التى تقوم بها الدول. وهذا هو ببساطة جانب من عملية التدوير الطبيعية التى تسبق فترة إعادة ترميم الكوكب، تمهيداً لبدأ حضارة جديدة.

الامتحان . . حتّى الموت

في نهاية البيان الغريب، يقول «دو»، وهو الاسم الذى اختاره صاحب الدعوة لنفسه، موجهًا حديثه إلى جماهير شبكات الإنترنيت «إذا ما تم الاتّصال بينك وبين هذه المعلومات، وإذا حاولت الاتّصال بنا، بمحض إرادتك، معتزمًا أن تترك إنسانيتك خلفك وترتبط (بالمستوى التطوّرى لما فوق الإنسانية)، إذا تم ذلك فأنت قد تواجه ما يبدو كاختبارات من الصعب تخطّيها. في إمكانك أن تتصور عملية «التنحّى» عن انفصالك. وقد تواجه أيضًا باحتمال أن تفقد الجسد الذى (ترتديه) خلال استعراضك لإيمانك. ونحن بإمكاننا أن نأخذ بيدك خلال جميع المحاولات، التى صمّمت لتوفر لك القوّة والعزيمة».

إلى أن يقول «إذا ما كنت تتوقّع أن تمضى معنا فى سفينة الفضاء الخاصّة بنا، المتجهة إلى (عالمنا)، مملكة مستوى ما فوق البشرية الوحيدة والحقّة، فالأرجح أن ترتبط جسديا بالاستعداد والتهيّؤ لهذه المغادرة. هذا التهيؤ، لا يجب أن يسمح فيه بتدخّل خدم هذا العالم.»

إحباطات الحياة المعاصرة

هذا جميعه مجرّد جانب صغير من أوراق هذه الدعوة المأساوية.

وجماعة «بوّابة السماء»، ليست ظاهرة وحيدة أو محدودة، ولكنها واحدة من الحالات العديدة متباينة الأهداف والأغراض، التى عرفتها -

وتعرفها- البشرية على امتداد تاريخها . ومن الممكن أن نرى ذلك من خلال النظرة العامة لهذه العقائد والجماعات ، لكي نرى مدى اتّفاق أو اختلاف هذه العقيدة الغربية مع غيرها من العقائد المعاصرة والتاريخية ، التي سنوردها بالتفصيل في هذا الكتاب .

الخبراء في مجال مثل هذه العقائد والجماعات ، يعتقدون أن تنامي العقائد والجماعات والحركات الحديثة ، يرجع إلى الإحساس بالإحباط وعدم الرضا بالحياة الحديثة ، من جانب أفرادها . في هذا يقول جوسيه لاساجا ، أستاذ علم النفس في جامعة ميامي ، بالولايات المتّحدة ، في حديثه عن إحدى هذه الجماعات التي عرفت باسم «جماعة هيكل الشعب» ، أن انجذاب الناس إليها «يرجع إلى عدم رضاهم الشديد بنمط الحياة الأمريكية ، إمّا بسبب الإحباطات الشخصية والعائلية- كما في حالة التمييز العنصري- أو بسبب المثالية السياسية- أناس يتشوّقون إلى شكل للتنظيم الاجتماعي أكثر عدلاً» .

وظيفة الجماعة وقيادتها

يحدث هذا ، في الوقت الذي تمد فيه هذه العقائد والجماعات أتباعها بحياة أفضل وأقلّ توترا . وفي معظم الحالات تعمل العقائد كوحدة مساندة ، على شكل عائلة كبيرة ممتدّة ، تخفّف عن أتباعها بعض ضغوط العالم الخارجي .

وفى الأغلب، ترأس كلّ جماعة شخصيّة قويّة ذات صفات قيادية عالية. تقود الجماعة وتوجّهها، وترسم سياسة الجماعة، وترسى قواعد سلوكها. وقائد الجماعة، غالبًا ما يوفّر لأعضائها «صورة الأب»، متّخذًا القرارات المهمة، ومن ثمّ مزوّدًا أتباعه بإحساس قوى فى توجّهاتهم، بما يعفيهم من الحيرة وعدم اليقين.

معظم هذه الفرق والجماعات تكون محدودة العدد، وقصيرة العمر. والقليل منها، كما فى حالة عصابة تشارلز مانسون صغيرة العدد، تحظى بذيوع كبير خلال العنف أو غير ذلك من الوسائل. ومع ذلك، فقد نمت وانتشرت هذه الجماعات، على مدى العشرات من السنين، وربما ما هو أطول من هذا، لكى تتحول إلى تنظيمات ناجحة، لها أتباعها القوميين أو الدوليين.

أعضاء كلّ جماعة يعيشون عادة معا، وحتّى فى حالة العقائد ذات العدد الكبير من الأتباع، ممّا لا يسمح بالمعيشة المشتركة، غالبًا ما ينظّم الأعضاء أنفسهم فى بؤرات، مع بقاء الاتّصال الوثيق فيما بينهم. وأعضاء الجماعة يتبرّعون بالمال أو العمل لتنظيمهم، وفى بعض الأحيان يتنازلون عن جميع ممتلكاتهم للجماعة. ومن ناحية أخرى، تقوم قيادة الجماعة بتدبير حاجات أفرادها اليومية، توفّر الطعام، وتدبر العمل، وتؤمّن الرعاية الصحيّة، وتدير الشئون المالية للجماعة، وفى بعض الأحيان الشئون الخاصة لأفراد الجماعة.

افتقاد المدينة الفاضلة

ولكن ، كيف تجتذب الجماعات ، من أمثال "بوّابة السماء" ، أتباعها؟ .

بصفة عامة ، يكون عنصر الجذب الأساسي للجماعة ، أنها تعد أتباعها بحياة أفضل . وبالنسبة للعديد من هذه الجماعات ، لا تكون هناك حاجة إلى بذل جهد في تجنيد المزيد من الأتباع ، عندما تكون رسالة الجماعة على درجة عالية من الجاذبية ، بما يجتذب تدفقًا من الراغبين في الدخول . وهناك بعض الجماعات والعقائد التي يكون عليها أن تبذل المزيد من الوقت والجهد في تجنيد الأتباع .

وولاية كاليفورنيا ، التي ظهرت فيها جماعة «بوّابة السماء» ، كانت دائمًا الأرض الخصبة لتفريخ مثل هذه الجماعات ، ومن أكبر أسباب ذلك أن أبناء هذه الولاية يتضمّنون نسبة عالية من الذين يفرون من الولايات الأخرى .

دكتور لويس ويست ، رئيس قسم التحليل النفسي في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس ، يصف الذين ينجذبون إلى هذه الجماعات والطوائف بقوله :

«إنّهم يتوقّعون أن تكون كاليفورنيا يوتوبيا (أي مدينة فاضلة) . لكن البعض يفقدون أحلامهم هذه عندما يصلونها ، فيختلطون بأصحاب العقائد ، الذين يعدونهم بأن يوفّروا لهم الروابط التي يسعون إليها .

وبالنسبة للعديد من هؤلاء تكون هذه العقائد أقرب إلى المدينة الفاضلة».

وفى عالم اليوم، يميل العديد من البشر إلى أن يستمعوا لمن يقول لهم « هذا هو السبيل، فأنا أعلم إلى أين أمضى، ولهذا أدعوكم إلى أن تنضمّوا لى . . ».

* * *

فيما يلى من حديث، سنطرح تنوّعا من هذه الطوائف والجماعات والمذاهب، التى تتباين فى طبيعتها وتوجّهها ونشاطها . ومن المعروف أن هذه الجماعات يقتصر بعضها على جانب واحد من حياة أتباعها، كالجانب الدينى أو الفلسفى، أو قد تمدّ نشاطها إلى حياة الأتباع بأكملها . بعض هذه العقائد يكون إيجابيا، بمعنى أنه يبشّر بطرق جديدة لتحقيق ذات الفرد ودعم إدراكه، وبعضها الآخر يكون رجعيا أو أصوليا، يبشر بالرجوع إلى السبل القديمة، ومناهج الحياة الأكثر سذاجة .

ومعظم العقائد الحديثة تندرج تحت واحد من الأنماط التالية : الدينية، أو التأهيلية، أو الساعية إلى تعمق الإدراك، أو الأصولية، أو العسكرية . وفى جميع الأحوال، تكون من الظواهر التى تستحق الدراسة والاهتمام .

(٢) «الفجر الذهبى»..

على مدى التاريخ، تستفيد العقائد والجماعات والفرق من بعضها البعض. كلّ من يتصدّى لاختراع جماعة جديدة، يجد أمامه تنوّعا من الخيارات، ينتقى منها ما يراه مناسبا للزعامة التى يصبو إليها. ومع التنوع الكبير فى طبيعة نشاط كلّ جماعة أو فرقة، فإنها جميعا تندرج تحت نمط من الأنماط التالية: دينى، أو تأميلى، أو إدراكى، أو أصولى، أو عسكرى. وهذه الجماعات تكون ذات توجّيهات مختلفة، وبعضها يستهدف ترقية مستوى إدراك العضو، وبعضها يتّسم بالعنف تجاه الذات أو الآخرين، وبعضها تكون له أهدافه السياسية التى يسعى بها إلى التأثير على الحكومات، وبعضها يلتزم بالتطهّر والزهد بينما يندفع البعض الآخر إلى الملذّات والجنس. بعض أتباع هذه الجماعات تستطيع أن تستدلّ عليهم من تصرفاتهم وأفكارهم، والبعض الآخر قد لا تشعر أنه يختلف عن أى شخص آخر ممن هم حولك فى عملك أو سكنك. مثال ذلك ما جاء فى كتاب «العقائد الغريبة».

جرى هذا عام ١٨٩٧ ، أي منذ قرن كامل. ألفريد سمايث، في الخمسين من عمره، يعمل كاتبًا في أحد البنوك. طوال أيام الأسبوع، يجلس خلف مكتب ضخم، يدوّن الأرقام فوق أكوام الأوراق التي تزحم مكتبه، معالجا تدفّق الجنيهات والشلنات والبنسات.

في السادسة تمامًا، يرتدي معطفه ويضع قبعته على رأسه، ويتناول مظلّة المطر، ويركب سيارة أجرة إلى منزله، بشارع ميدافيل، ليتناول عشاء هادئا مع زوجته. ثم يقرأ قليلاً، قبل أن ينام.

في بعض الأمسيات، يمضي سمايث إلى منزل عادي المظهر بواسط لندن، معروف لديه وقلّة من الآخرين باسم **«هيكل إيزيس - يورانيا، لجماعة الفجر الذهبي»**.

هناك، يدخل سمايث إلى عالم مختلف تماما عن عالمه اليومي المعتاد. القناديل والشموع ودخان البخور، يضفي على القاعة جوا من الغموض، بالإضافة إلى ما تضمّه القاعة من الرموز: وردة، وصليب، وهرم ناقص القمّة، وتنّين أحمر.

في هذه القاعة، يتحوّل السيد سمايث موظّف البنك، إلى شخص آخر. إنّه الآن يرتدي رداء طويلا، عليه شارات ملونة، ويمسك بصولجان زهرة اللوتس، كرموز لاعتزام دخول الجوّ السحري. إنّه مع غيره من الرجال والنساء الذين تضمّهم القاعة، من أتباع عقيدة الفجر الذهبي، خبراء في الأعمال السحريّة.

فن وعلم تغيير المدارك

زملاء السيد سمايث فى البنك، لابد أنهم ينفجرون بالضحك، لو ذكر أحدهم أمامهم كلمة «سحر»، فالعقل المعاصر المستنير لا يتصور وجود مثل هذا. ولكن، بالنسبة لأتباع «الفجر الذهبى»، لا يعتبر السحر حقيقيا فقط، بل من الأمور ذات الأهميّة العظمى. إنّه فى عقيدتهم «علم وفن إحداث التغيّرات فى المدارك».

وأعضاء هذه العقيدة يؤمنون بأن دراسة تعاليم هذه العقيدة، المستمدّة من الكتابات السحريّة القديمة، وأداء طقوسها المعقّدة، يتيح لهم الهرب من قيود العالم المادى، وأن "يصبحوا داخل الضوء". ويؤمنون بأن القوى السحرية، وفنون ما وراء الطبيعة، تعمل مؤثّرة على الكون، وأن الأتباع المدربين يمكنهم أن يضعوا هذه القدرات والخبرات موضع التنفيذ.

المعارف المرفوضة

والفجر الذهبى، هى نتاج عدة عوامل فى التاريخ الاجتماعى للقرن التاسع عشر فى إنجلترا. وقد تأثرت بتاريخ الحركة الروحانية إلى حدّ بعيد.

ونتيجة لهبوط حماس الناس بالنسبة لحركة الروحانية، بما شابها من خداع على يد جيش الوسطاء الروحانيين، توجّه عدد من الرجال والنساء

إلى دراسة ما كان يعرف باسم «المعارف المرفوضة»، أي المرفوضة من جانب المؤسسات الرسمية لعدم قيامها على أسس عقلية. وقاد إلى اهتمام متزايد بجماعات «البنّائين الأحرار»، التي نعرفها اليوم باسم «الماسونية». وقد ظهرت حركة «الفجر الذهبي» في ذلك الطقس.

مؤسّس الحركة هو دكتور وليام ويستكوت، أحد أطبّاء القلب في لندن. وتقول وثائق هذه الحركة، أن د. ويستكوت توصّل إلى خطة من أجل تنظيم عقيدة سرّية غير مسبوقة، بعد شهور من استقرار هيلينا بلافاتسكي في لندن، عام ١٨٨٧. وكان وصولها إلى لندن سبباً في زيادة الاهتمام بنشاط العقيدة الثيوصوفية. غير أن ويستكوت كان يطمح إلى ما هو أبعد. لقد كان يريد تشكيل عقيدة سرّية، لا يسهل الدخول فيها كما كان الحال في الثيو صوفية و الماسونية.

المخطوطات السرّية المشفرة

كيف توصّل ويستكوت إلى ذلك التركيب المحكم لعقيدته؟

في عام ١٨٨٧، سلّم القس وودفورد إلى ويستكوت ستين صفحة من مخطوط مكتوب بالشفرة. كان المخطوط مكتوبا على ورق قديم، وقد أضفى الحبر الذي أصبح حائلاً طابع القدم عليه. وقد ثبت بعد ذلك أن المخطوط لم يكن قديما، كتبه شخص مجهول في وقت قريب من ظهوره بين يدي ويستكوت.

استطاع ويستكوت أن يفكّ شفرة المخطوط ، وبعد أول قراءة له ، وضع يده على خمسة طقوس ، شعر أنّها تصلح أساسا لعقيدة «الفجر الذهبي» . وعلى الفور استدعى رجلاً يدعى مازرز ليكون نائبه في هذه الجماعة ، ومساعده في استنباط الطقوس اللازمة من المخطوط . وقد استفاد ويستكوت من انتسابه إلى الحركة الماسونية ، في وضع الشكل التنظيمي للجماعة ، وتسلسل القيادات فيها . وفي عام ١٨٨٨ ، انتهى ويستكوت من كتابة الوثيقة الغريبة ، التي كانت أول ما يقدّم إلى الأتباع الجدد .

هيكل إيزيس -يورانيا

وما أن حلّ عام ١٨٩١ ، حتّى كانت الجماعة قد اجتذبت ما يزيد عن ثمانين من الأتباع ، من بينهم ٤٢ امرأة . كما تم إنشاء فرع لهيكل إيزيس- يورانيا في مدينة برادفورد ، يضم حوالي ثلاثين من الأتباع .

وفي عام ١٨٩٢ ، أزاح مازرز رئيس الجماعة ويستكوت ، وأعاد تنظيم الجماعة مستأثرًا بالقيادة . واستطاع بمساعدة زوجته الرسّامة ، أن يضفي على مقّر الجماعة العديد من التأثيرات القويّة ، التي كانت تفقد الأعضاء الجدد مقاومتهم (وهي الأشياء التي أشرنا إليها عند الحديث عن موظّف البنك سمايث) . وبقي لدكتور ويستكوت أن يدير ما أطلق عليه «النظام الخارجي» في لندن .

وكان جمروح مازرز سببًا في مرور الجماعة بحالات من الخلاف والتمزق.

واليوم، لم يعد للفجر الذهبي وجود كتنظيم، وإن كانت الدراسات متواصلة لتاريخ الجماعة وتوجّهاتها السحرية.

الشاعر ييتس، عاشق الغوامض

ولعل من بين أشهر أعضاء الفجر الذهبي، الشاعر الأيرلندي ييتس. وفي إحدى النشرات التي تتحدّث عن نظام الامتحانات للدخول في العقيدة، يقول ييتس: «الانتقال من درجة إلى أخرى، عبارة عن استغاثة موجّهة إلى الحياة الأعلى، وخطو في المسار الرمزي، وممرّ عبر البوابة الرمزية، وتسلّق تجاه النور الذي هو أساس نظامنا، من أجل أن يتدفّق الإيمان بشكل دائم من أسفل الدرجات المرئية، إلى ذرى الدرجات المعروفة لنا.».

من كلمات ييتس يمكننا أن نلتقط لمحات من عنصر الجذب الذي يتوافّر لدى هذه الجماعات، بالنسبة للعديد من البشر. معظم العقائد تعد الأتباع بإقامة حياة أكثر ثراء. وعن طريق دراسة تعليمات العقيدة، والمشاركة في طقوسها، يمكن للفرد أن يرتقي فوق الحياة الميكانيكية الدنيوية، التي يأخذ بها عادة، ويرتبط بنوع من القوّة.

ولا يمكن لأحد أن يفهم بشكل كامل أشعار وليم بتلر ييتس، دون أن يدخل في الاعتبار انشغاله العميق على امتداد سنين حياته بالعقائد الغريبة

والغوامض. وهو يقول في أحد خطاباته، «الحياة الغامضة، هي مركز كل ما أفعله وأفكر فيه وأكتبه».

ولقد مرّ تعلّق ييتس بالغوامض في عدد من الأطوار. كان أوّلها ارتباطه بعقيدة «الثيوصوفيّة»، والتي عرفها عندما كان في السابعة عشر من عمره، بمدينة دبلن. في عام ١٨٨٥، التقى في دبلن بالثيوصوفي الهندي موهيني تشاترجي، الذي كان قد وصل المدينة لإلقاء محاضرة. وعن طريقه تعرف على أفكار الفيلسوف الهندي سامكارا، الذي كان يقول بسيادة الذات الشخصيّة، وعدم واقعيّة العالم الخارجي. وقد استقال ييتس من الجمعية الثيوصوفية عام ١٨٩٠.

وفي عام ١٨٨٧، كان قد انتقل مع والديه إلى لندن. وتاريخ استقالته من الجمعية الثيوصوفيّة جاء مباشرة قبل تاريخ انضمامه إلى جماعة الفجر الذهبي، والتي كان يرأسها ماكجريجور ماذرز، والتي كانت تضمّ في ذلك الوقت الساحر كراولي والممثلة فلورنس فار.

ومن خلال «الفجر الذهبي»، تعرّف ييتس على الحيلة الثرية للرمزية السحريّة، التي لعبت دورا أساسيا في أشعاره. كما كان يهتم بأوراق «التاروت»، وهي شبه أوراق اللعب (الكوتشينة)، تستخدمها العرّافات عادة للكشف عن مستقبل الزبائن. وكان ييتس يقتني مجموعة من أوراق التاروت، عليها ملاحظاته الشخصيّة بخط يده.

وقد انقطعت علاقته بجماعة الفجر الذهبي عندما تفككت إلى عدد من الجماعات عند مطلع القرن.

(٣)

كراولى.. وجماعة النجمة الفضية

ومن بين الذين ارتبط اسمهم بجماعة الفجر الذهبي، أليستر كراولى الساحر الغارق في مختلف أنواع العقائد الشبيهة. لكنّه لم يبق طويلاً في هذه الجماعة، وتركها ليؤسّس طائفته الخاصة، القائمة على عقائده الشخصيّة.

ولد أليستر كراولى عام ١٨٧٥، في مدينة واروكشار بإنجلترا، في جو عائلي يتّصف بالتعصّب والطائفية وضيق الأفق. كان والده ينتسب إلى جماعة «إخوة بلايموث»، ويعمل مبشّراً بها. وهكذا، شب الفتى كراولى متمرّدا، على قدر كبير من العنف، إلى حدّ أن والدته كانت تؤمن بأنه شخصيا الوحش ٦٦٦، الفوضوى الوارد في عقيدة يوم الدينونة. وقد سجل كراولى مظاهر الجحيم الذى كان يقيمه وسط مجتمعه في كتابه «اعترافات». وكان مولد كراولى في السنة نفسها التى أسّست فيها مدام بلافاتسكى الجمعية الثيوصوفية. وقد اعتبر كراولى هذا التوافق يحمل دلالة قويّة، حول توحدهما.

على كلّ حال، لم يكن هذا بالشيء الذي يذكر، قياسا على ما جرى بعد أن رصد حياته لممارسة السحر. وقد أمضى شبابه في الترحال، وتسلّق صخور الجبال، والقراءة، ومعاشرة النساء، وكتابة الشعر. وقد نجح في تسلق قمم أعلى سلاسل الجبال، وخاصّة جبال الهيمالايا. ومن أفضل أشعاره التي كتبها، «آها»، و«مدينة الله»، و«التراب السعيد»، وعشق العديد من النساء والرجال. وتوصّل إلى وصفة خاصّة من العقاقير المخدّرة، التي كان قد عرف أسرارها عندما التقى ألان بينيت في عام ١٨٩٨، وهو رجل إنجليزي تحوّل إلى كاهن بوذي، ولعب دوراً مهما في نشر البوذية في الغرب.

سحابة فوق الحرم

أمضى كراولي دراسته الرسمية في ترينيتي كولدج، بكمبردج. لكن ذلك لم يمنع استغراقه في دراسة الظواهر والجماعات الغامضة. كان عقله يتشوّق إلى اللانهائيات، وكانت روحه تتوق إلى تجارب لا يمكن الوصول إليها من الخبرات الأرضيّة.

في عام ١٨٩٨، وكان قد بلغ الثانية والعشرين من عمره، تصاعد جوعه إلى المعارف الروحية قد أصبح قويا. وكان يقرأ في ذلك الوقت كتاب «سحابة فوق الحرم»، من تأليف كارل فون إكارتسهاوزن، وهو كتاب يشير إلى وجود أخوّة خفيّة من الأتباع، قادت تطوّر البشرية. وكان لكتاب «السحابة» تأثير عميق على كراولي، إلى حدّ أنّه أقسم على أن

يأخذ مكانه بين أتباع ذلك التنظيم الخفي. وقد قاده اهتمامه هذا إلى الانضمام إلى عقيدة الفجر الذهبي، في عام ١٨٩٨، بمدينة لندن. وكان قائد هذه الجماعة حينئذ هو مازرز، الذي كان باحثًا مشهودًا له، بعد أن تمكّن من ترجمة نصوص غامضة ومعقدة للغاية، مثل كتاب «كبالا دمداتا» لمؤلفه روزنورث. ولكن مازرز كان إلى جانب هذا ساحرًا، يمارس الأعمال السحرية بتفوّق، فكان كراولي ينظر إليه باعتباره (السيّد).

وقد انهارت جماعة الفجر الذهبي بعد قليل من دخول كراولي فيها. لكن هذا لم يثبط من همّة كراولي، وعزمه على الوصول إلى المنابع الحقيقية للمعرفة والقوّة. وعلى أنقاض جماعة الفجر الذهبي، أقام كراولي –بالتدريج– نظامه الذي أطلق عليه «النجمة الفضّية».

بدأ بالسفر إلى المكسيك، وهاواي، وسيلان، والهند. فدرس ومارس اليوجا، والتانترا، والبوذية، وكان رائدًا في التقنيات الجنسية لليوجا التانتريّة، في الممارسات السحرية التقليدية في الغرب. وبعد هذا بعدّة سنوات، وخلال تجواله في الصين، تم تنصيبه ضمن النظام الداخلي لعقيدة «آي شنج» الصينية القديمة، والتي أدخل بعض عناصرها إلى العقائد الغربية.

شهر عسل مثير في القاهرة

ولعل أهم أحداث حياته، كان ما جرى له في القاهرة، التي كان قد قدم إليها لتمضية شهر العسل مع زوجته روز، التي تزوّجها في

أسكتلندا، عام ١٩٠٣ وكانت أخت رسام البورتريه الشهير جيرالد كيلى، رئيس الأكاديمية الملكية.

وقد وصف كراولى زوجته بأنها «اجتماعية ومنزلية للغاية»، ومن ثم كانت آخر من يتصور أن تكون لها علاقة بالممارسات التى كان غارقا فيها. ولهذا، عندما أعلنت أنها قد بدأت تجرى اتّصالات بالمستوى الأثيرى، كان كراولى متشككا فى صدق قولها. ولكنها أصرت على أن هناك رسالة ذات أهمية حيويّة سيجرى توجيهها إلى العالم عن طريق كراولى، وأن عليه أن يهيئ نفسه لذلك. وذكرت له بعض الأسماء والأرقام السحرية، التى لا يعرفها سواه.

كانت حصيلة ذلك «كتاب القانون»، وهو عبارة عن ثلاثة فصول قصيرة وغريبة، أملتها على كراولى روح ذكيّة اسمها «آيواس». بدأ الإملاء ظهرا، وانتهى فى الساعة الواحدة، على مدى ثلاثة أيام متعاقبة، فى إبريل ١٩٠٤ أعلن آيواس خلالها قانونًا جديدا للجنس البشرى، وبداية عصر جديد فى تطوّر الوعى الدنيوى.

آيواس . . والشيطان السومرى

فى كتابه «السحر فى النظرية والتطبيق»، لا يتكلّم كراولى عن آيواس باعتباره ملهمه الخاصّ، ولكن باعتباره التيّار السحرى لطاقة الخصوبة الشمسيّة، التى كان كراولى يعتقد أنّها كانت تعبد قديماعلى صورة

«الشيطان» فى حضارة سومر . وفى صحارى مصر كان يعبد فى عصر الأسرات ، كما كان الحال مع الإله العظيم «ست» .

ووفقا لأقوال كراولى ، كان ذلك الإله الأصل الحقيقى للبشريّة ، ثعبان الحكمة الذى تنسب إليه دعوة «اعرف نفسك» ، الذى كان يعبده أتباع المذهب الغنوسطى ، الذى اعتنقه بعض المسيحيّين معتقدين أن المادة شرّ ، وبأن الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحية ، ذلك المذهب الذى يكرهه المسيحيّون .

لقد أعلن «كتاب القانون» عن قانون الإرادة السحريّة ، «افعل ما يتوجب عليك أن تفعله ، ولا تفعل أى شىء آخر» . وهذا ينسجم مع فكرة التاويّة التى تقول بترك الأشياء تمضى فى مسارها ، دون تدخلّ من العقل الذى يسعى لأن يخضعها للمفاهيم .

الوصول إلى مرتبة «ماجوس»

فى عام ١٩٠٩ ، سعى كراولى إلى ارتياد الآفاق الأبعد ، «الأثيريات» التى ناقشها كل من إدوار كيلى وجون دى قبل ذلك بثلاثة قرون . وقد زعم كراولى أنه كان إدوارد كيلى فى حياة سابقة ، وفقا لعقيدة التناسخ ، وأن ما يقوم به فى ذلك الوقت هو مجرد استكمال ما كان قد بدأه من قبل فى حياة سابقة . وقد وصف كراولى رحلاته الأثيرية هذه بالتفصيل ، فى أكثر أعماله أهمّية ، «الرؤية والصوت» .

وفيما بين ١٩١٥ و ١٩١٩ ، عاش كراولى فى الولايات المتّحدة . وفيها مرّ عبر سلسلة من المحن والامتحانات السحرية ، التى انتهت بوصوله مرتبة «ماجوس» ، المرتبة الأخيرة فى تسلسل الرئاسات السحرية . وقد ذكر كراولى أنّه توصّل إلى أسرار هذه المرتبة ، عن طريق آلهة مصر القديمة ، الذين ظهروا له على صورة نساء متعدّدات ! .

لقد ربط كراولى بين الخواص المادّية لهذه الآلهة ، وبين الحيوانات أو الوحوش التى كانت هذه الآلهة المصريّة القديمة تتخذها كأقنعة لها ، والتى كانت تستخدمها كوسائط اتّصال بقنوات القوّة .

الرحلات الأخيرة

وفى عام ١٩٢٠ ، عندما أقام كراولى معبده فى جزيرة صقلّية ، كان مستعدا لقضاء باقى حياته فى نشر وإشاعة عمله الكبير ، والذى كان يراه فيما يقوم به من كشف للأتباع عن غوامض البشرية ، خلال تحركهم من طور إلى الآخر .

ثم سافر كراولى إلى إيطاليا ، وفى عام ١٩٢٣ أُبعد منها ، فسافر إلى تونس ، ومنها إلى فرنسا ، حيث عانى معاناة قاسية ، وحيدا ويائسا ، فى حربه ضدّ إدمانه للهيروين . ثم سافر إلى ألمانيا ، قبل أن يعود إلى إنجلترا ، ويقيم بها آخر ١٥ سنة من عمره .

ولم يحدث أن تنازل كراولى عن حلمه، بإنشاء مستعمرة للسحر، يسعى فيها أتباع عقيدته إلى استحضار القوى الغريبة التى تبدّت له يوما عن طريق روحه الحارسة آيواس. وظلّ حتّى وفاته عام ١٩٤٧، فى مدينة هاستينجز، فى حالة عمل نشط بلا توقّف، يصدر الكتب والنشرات، ويكتب الأشعار ويحرّر ما لا عدد له من الخطابات، إلى أناس فى جميع أنحاء العالم.

وجماعات السحر، وعبادة الشيطان القائمة على بعض العقائد الوثنية، لها نظائرها المعاصرة، فى كثير من المجتمعات.

(٤)

جماعات السحر المعاصرة

رغم الدعاوى التى تتردّد بين الحين والآخر فى أوساط جماعات السحر المعاصرة، من أنهم يحيون التقاليد القديمة لهذه الجماعات، التى يرجع تاريخها إلى ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة، فالأغلب أن جذور هذه الجماعات السحرية المعاصرة ترجع إلى الوقت الذى نشر فيه كتاب مرجريت موراى " العقائد السحرية فى أوروبا الغربية " ، الذى ظهر عام ١٩٢١ .

الأفكار الأساسيّة لكتاب دكتور موراى، تمضى كما يلى :

(١) أن محاكمات الجماعات السحرية، التى جرت فى أواخر العصور الوسطى، وفى عصر النهضة، لم تكن حول انحرافات فكرية، بل كانت نتيجة للصراع بين المسيحية والحركات المنظّمة التى كانت ضد الدين .

(٢) وحركات السحر المضادّة للدين هذه، يمكن اقتفاء جذورها

فيما سبق عقائد الخصوبة الكلاسيكية، الأم العظمى والملك المقدّس، والآلهة المتجسّدة التي كانت تذبح لضمان الخير والخصوبة.

(٣) وأن هذه العقائد كان لها حتّى القرن السابع عشر، نظام تسلسل رئاستها الدينية الخاص، ومهرجاناتها الخاصّة، وأماكنها المقدّسة، وتكوينها المميّز. وكان السحرة ينتظمون في خلايا، تضم كلّ منها ١٣ ساحراً وساحرة.

(٤) وأن بعض ملوك إنجلترا كانوا أعضاء في هذه الجماعات، في مواقع عالية من تسلسل رئاساتها.

الخيالات الجنسية والسحرية

تقول الدراسات أن الإحياء الفعلي المعاصر للعقائد السحرية، مرجعه إلى الخيالات الجنسية والعقائدية للإنجليزي كبير السن جيارلد جاردنر.

كان جاردنر، موظّف الجمارك المتقاعد، غارقا حتّى أذنيه في الروحانيّة، وعلم الإنسان (أنثروبولوجي)، والفلكلور والعقائد الشعبية. وكان يسيطر عليه -في الوقت نفسه- مزاج جنسي غير تقليدي، وميل إلى العقائد الشعبية، وسعى إلى الجمع بينهما في عقيدة خاصّة به. تلك العقيدة السحرية التي كانت تعتمد على مجموعة من الطقوس التي تتضمّن العري، والضرب بالسياط، والجماع.

كان كتاب جاردنر الأول بعنوان «المساعد فى السحر العظيم»، الذى يصف فيه بأدقّ التفاصيل العديد من الطقوس التى كان يعتمد عليها سحرة العصور الوسطى. وفى عام ١٩٥٤، نشر جاردنر كتاب «حرفة السحر اليوم»، وذكر فيه بوضوح أنّه كان يمارس السحر شخصيا. وقال أنه فى ذلك الوقت كانت إنجلترا حافلة بعشرات الجماعات السحرية، تمارس الطقوس السحريّة القديمة، التى كان قد أشار إليها فى كتابه الأول.

ديانة الإنجليز الأقزام

أعلن جاردنر فى كتابه هذا، أن حرفة السحر كانت ديانة السكّان الأوائل لبريطانيا. وقال أنهم كانوا من الأقزام، وأصلاً لأساطير الجنّيات. وتحت ضغط موجات الغزو المتتابعة، اضطرّ هؤلاء الأقزام أو «البشر الصغار»، إلى التخفّى، وأخذوا معهم دينهم القديم. وعندما دخلت المسيحية إلى أنحاء الجزيرة البريطانيّة، ظلّوا محتفظين بممارسة مراسيمهم الغريبة العربيدة فى الأماكن النائية. وكان الفلاّحون المؤمنون بالخرافات يخافونهم، أمّا النبلاء وزوجاتهم فقد كانوا ينضمّون إليهم فى هذه الممارسات.

هذه المزاعم العجيبة، مع الإيحاءات الشائعة حول ممارسة السحرة المعاصرون لحفلات الجنس الجماعى، أثارت حماس الصحافة البريطانية. فوجد جاردنر نفسه، وهو فى السبعين من عمره، مشهوراً.

لاحقته صحافة الأحد الشعبيّة ، ونشرت وصفه للقاءات السحرة التى كان يطلق على الواحد منها اسم «سابات» ، بما تتضمّنه تلك اللقاءات من عرى وطقوس الضرب بالسياط . وتكشف جاردنر عن شخصية مثيرة لفضول وحماس الصحافة .

الأب الجالس عاريا تحت المطر !

ولد جيرالد جاردنر فى لانكشاير عام ١٨٨٤ ، لأب ثرى من تجّار الأخشاب . وقد عرف عن والده أنّه كان غريب الطباع ، فقد كان يخلع ملابسة جميعًا ويجلس فوقها كلّما هطلت الأمطار ! . وقد شبّ جاردنر وقد نما لديه ميل للتلصّص على العراة ، كما اعتاد على الاستمتاع بضرب العصا ، على يد المربّية التى كانت تشرف عليه فى صباه خلال رحلات العائلة إلى الشرق الأوسط .

عاش جاردنر فى الشرق حتّى عام ١٩٣٦ ، فاكتسب ميلاً للأسلحة ، وبخاصّة الخناجر . وكانت كتاباته الأولى ، عن (كريس) ، الخنجر ذى الحدّ المتموّج ، الشائع فى الملايو .

وعندما عاد إلى إنجلترا ، ليصبح دارسًا وممارسًا للسحر . ووفقًا لقوله : إنه تعرّف على عالم السحر عام ١٩٤٦ ، عندما كان يعيش فى (نيو فورست) بجنوب إنجلترا . وقصّة ذلك ، أنّه التقى هناك بسيّدة تدعى «دورسى العجوز» ، كان يفترض أنّها من الطبقة الأرستقراطية ، علّمته كلّ ما يتّصل بالعقائد الشعبية والسحر ، وأقنعته أن هذا جميعه

يعتبر إحياء للديانات الوثنيّة القديمة . الباحثون لا يأخذون أقوال جاردنر على علاتها ، ويرون أن الكثير مما رواه مستمد من خياله وليس من واقع فعلي عايشه ، كما كان هناك أكثر من دليل على ميله إلى الكذب .

وأصبح ملكًا للسحرة

ورغم كلّ ما تعرّض له جاردنر من انتقادات ، استطاع أن يجتذب المئات من الأتباع الجدد لعقائد السحر ، وعندما مات في الثمانين من عمره ، ظهرت مانشيتات الصحف البريطانيّة تتحدّث عن وفاة «ملك السحرة» . وأيا كانت قيمته كباحث ، فقد نظر إليه الجميع باعتباره الشخصية الرائدة في عملية إحياء حرفة السحر . فمنذ وفاته ، تضاعف انتشار جماعات السحر في جميع أنحاء بريطانيا والولايات المتّحدة . ويقدّر عدد الجماعات السحريّة النشطة في الولايات المتّحدة وحدها حاليًا ، بما يتراوح بين عشرة آلاف وعشرين ألف جماعة .

ولكن ما هي بالضبط الممارسات السحرية التي أحياها جاردنر ملك السحرة؟ .

بالنسبة لنا جميعا تستدعي كلمة «السحر» ، صورة الساحرة قبيحة الوجه ، ذات الطرطور الطويل ، تمتطي مكنسة في الفضاء ، وتشيع لعناتها الشريرة . غير أن السحرة المعاصرين يعلنون احتقارهم للشر ، وأنّهم يمارسون سحرهم من أجل خير البشر .

تعذيب السحرة وحرقهم

منذ حوالى عام ١٤٠٠، وبالتحديد ما بين عامى ١٥٥٠ و١٦٥٠، مرّت أوروبا بالمحنة الكبرى للسحرة. فقد ساد الاعتقاد بأن المسيحية تتعرّض لغزو ملايين من محترفى السحر الأشرار، الذين يكرّس كلّ واحد منهم نفسه للإطاحة بالعالم المسيحى. لقد كانوا من الفلاحين الذين ينتشرون فى كل مدينة وقرية، يرتحلون بطريقة سحرية فى طول وعرض القارّة الأوروبية، خلال طيرانهم الليلى للتجمّع فى "السابات العظيم"، ويصنعون شبكة عالمية للشر.

ورغم تعذيبهم وحرقهم، فى البدء بالعشرات ثم بالمئات ثم بالألوف، فإن أعدادهم كانت آخذة فى الزيادة طوال الوقت. حتّى خيل لصائدى السحرة وسط سعارهم أن العالم على وشك أن يستولى عليه إلى الأبد السيادة المرعبة للشيطان.

القداس الأسود، والسحر الأبيض

فى نهاية القرن السابع عشر، خمد لهيب المعركة مع السحرة، فانطفأت نيران المحارق، واختفت مشانق السحرة. وفى المجتمعات الريفيّة، عندما كانت تسمع تمتمات العجائز، كن ما زلن يتّهمن بالتعامل مع الشياطين، لكن لم يكن هناك ما يدفعهن إلى الخوف على حياتهن.

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، شهد العالم تحوّلاً إلى شكل

سحرى جديد، «القداس الأسود». فكان أعداء المسيحية يقيمون احتفالات تتهكّم على القدّاس الكاثوليكى، حول جسد عذراء عارية، وكان يعقب هذه المراسيم ممارسات للجنس الجماعى. ورغم عدم ادعاء هؤلاء الأشخاص أنهم من السحرة، إلاّ أن طقوسهم كانت تقوم على الممارسات المرتبطة بممارسات السحرة.

وبتأثير من كتابات مارجريت موراى وجيرالد جاردنر، يسيطر على نشاطات السحرة حاليا ما يطلق عليه «السحر الأبيض»، الذى يدّعى أصحابه أنّهم إلى جانب الخير. وفى هذا تقول سيبيل ليك، وهى واحدة من أهم الساحرات الأمريكيات، تقول فى حديث أجرته معها جريدة الدايلى إكسبريس فى عام ١٩٦٤، «أنا ساحرة بيضاء، أتيت من سلالة طويلة كانت تمارس السحر الأبيض، الذى لا يقوم إلاّ على عمل الخير».

مراسيم التعميد العجيبة

فى كتابه عن السحر والسحرة، يصف جيرمى كنجستون مراسيم تعميد ساحرة بيضاء، فيقول:

«فى حجرة بالبدروم، بمدينة لندن، حضرت تعميد ساحر من الرجال، يقود جماعة من جماعات السحر الأبيض، لفتاة فى العشرين من عمرها. عندما بدأت المراسم، كانت الفتاة تضع على جسدها رداء فضفاضًا. وبعد ذلك أسقطت الرداء، ووقفت عارية داخل دائرة قطرها

حوالى ثلاثة أمتار، مرسومة على الأرض بالطباشير. فى أول المراسيم أقسمت الفتاة على الولاء والسرية، وضمن طقوس التطهير تلقت ضربات بالسوط. كان الجو عبقاً بدخان البخور. وقف الساحر المسئول عن مراسيم التعميد عاريًا، هو وغيره من السحرة النساء والرجال الذين وقفوا بانتباه خارج الدائرة. قام السحرة بالرقص حول الدائرة من أجل تكثيف القوّة السحرية، وتوجيهها إلى الفتاة التى كان يبدو عليها الخوف وهى واقفة وسط الدائرة».

«قام الساحر المسئول بتقبيل قدميها وهو يقول: مباركتان هما القدمان اللتان أتيا بك إلى هنا. ثم قام بتقبيل ركبتيها قائلاً: مباركتان الركبتان اللتان ستركعان عند المزبح المقدّس. ثم قبّل جذعها وهو يقول: مبارك هذا الرحم، الذى بدونه لم نكن لنوجد. ثم قبّل نهديها وهو يقول: مباركتان هذان النهدان، اللذان تشكلا بجمال. ثم قبّلها من فمها وقال: مباركتان هاتان الشفتان، اللتان ستنطقان بالأسماء المقدسّة».

«بعد ذلك تم غسل جسم الفتاة بالزيت والنبيذ، ثم جرى تعريفها بالأسلحة الثمانى لحرفة السحر. وهى الخنجر ذى المقبض الأسود المعروف باسم (أثيم)، والخنجر ذى المقبض الأسود، والمبخرة، والسيف، والذيل، والسوط، والعصا، والحبل».

«بعد السعى بها حول الدائرة، وتعريفها بأعضاء الجماعة، دعيت

للمشاركة فى المراسيم الختامية، وهى تناول الوجبة الطقسية من الكعك والنبيذ. وهكذا أصبحت الفتاة ساحرة بيضاء».

ساحرات سالم

قرية سالم، التى هى اليوم مدينة دانفرز بولاية ماساشوستيس الأمريكية، كانت تضم عام ١٦٩٢ مجتمعا ريفيا صغيراً. كان سكانها المتطهّرون (بيوريتانيون)، من ذوى السيرة الطيّبة، مجدّون فى عملهم، يؤمنون بالله ويخشون الشيطان.

ولم تكن السنوات السابقة لعام ١٦٩٢ سهلة بالنسبة لهؤلاء المستوطنين الجدد. لقد عانت ماساشوستيس من هجمات الجراد والقحط، وكانت هذه كارثة بالنسبة للسكان الذين كان جلّ اعتمادهم على الزراعة. ومما زاد الطين بلّة، تلك الحرائق الكبرى التى اندلعت فى بوسطن عام ١٦٩١، وخرّبت معظم المدينة. وكان الاعتقاد الشائع بين معظم المستعمرين، أن هذه المصائب كانت من صنع الشيطان، ويهدف إقصائهم عن«نيو إنجلاند».

وإلى هذا المناخ، يعود اندلاع موجات التطيّر التى قادت إلى هستيريا عام ١٦٩٢. فمع ما شاع من أن بعضهم يرتبطون بعلاقات شريرة مع الشيطان، راح أهل هؤلاء الناس يبحثون عن ضحايا من البشر، يلقون عليهم باللوم فى المصائب التى يمرّون بها. فوجدوا ضالتهم فى أهل قرية سالم الصغيرة.

عبيد القس باريس

قبل أن يتولى القس صمويل باريس المسئولية الدينية فى القرية، كان فى زيارة لجزر باربادوس، وعاد منها بعبدين اشتراهما من هناك: جون الهندى، وهو كاريبى يعمل بالزراعة، وزوجته تيتوبا التى كانت تعمل فى بيت القس. وتيتوبا كان نصفها كاريبى والنصف الآخر أفريقى. ولهذا، جاءت ومعها أسرار «أوبياه»، السحر الشائع فى الجزر الهند الغربية، والذى جلبه الأسلاف من أفريقيا.

فى شتاء عام ١٦٩١، بدأت تيتوبا تكشف عن قدراتها السحرية لبنتين صغيرتين فى منزل القس، إليزابيث وأبيجيل. كانت إليزابيث ابنة القس فتاة هادئة مطيعة فى التاسعة من عمرها. أما إبيجيل وليامز، فقد كانت ابنة خالة إليزابيث، تكبرها بسنتين، ذات طباع مختلفة مؤذية وشريرة. ولم يكن هذا أمراً شاذاً، فإن عنف التنشئة البيوريتانية، كان يتناقض بشدة مع تفتح الصغار للحياة.

فى الساعات الطويلة لبعد ظهيرة الشتاء، وكلما كان خال أجيبيل وزوجته خارج البيت، كانت تهرع إلى المطبخ، لكى تستمع إلى حكايات تيتوبا عن السحر، وتطالبها بقراءة مستقبلها. وبالطبع كانت إليزابيث تحضر هذه الجلسات.

التدفق على مطبخ تيتوبا

ثم ما لبث أن جاءت فتيات أخريات، من بنات عائلات قرية سالم وخادماتهن، يسعين إلى التعرف على طالعهن. وصل عدد الفتيات إلى

عشر ، وأعمارهن جميعًا أقل من ٢٠ سنة . وكان ما تقوم به تيتويا من قراءة الطالع ، يحدث إثارة شديدة للبنات ، اللاتى اعتدن الحياة الرتيبة . كما أن قراءة الطالع كانت محرّمة تمامًا بين البيوريتانيين الذين يعيشون فى نيو إنجلاند ، باعتبارها من أعمال الشيطان . وكان أثر هذا الصراع شديدا على الفتيات ، فمرضن وبدأت تصدر عنهن تصرّفات غريبة . إلزابيث ، كانت تمرّ بحالات قريبة من الغيبوبة ، تظل تحدق فى الفضاء لفترات طويلة ، ثم تأخذ فى الصراخ مرتمية على الأرض . وحدث نفس الشىء بالنسبة للفتاة أبيجيل ، بالإضافة إلى الأصوات التى كانت تصدرها من حلقها ، وكأنها تختنق . وكانت تنبح مثل الكلاب ، وهى تحبو على أربع .

يد الشيطان عليهن !

بدأ القس بتلاوة الصلوات عليهما داعيًا لهما الشفاء ، فكانت أبيجيل تضع يديها فوق أذنيها لكى لا تسمع الصلاة ، وكانت إليزابيث تصرخ ، بل وعمدت إلى تطويح الكتاب المقدّس عبر الحجرة . تضاعف قلق الأب ، فاستدعى الطبيب جريجز ، الذى أعطى الفتاتين العديد من العقاقير ، دون فائدة ترجى . فقال آخر الأمر ، وهو يهز رأسه فى أسف «إن يد الشيطان عليهن ! » .

تناقلت القرية قول الطبيب ، وأخبار النوبات التى تصيب الفتاتين ، وأخذوا يربطون بين ذلك وبين النوبات التى تصيب عددًا من فتيات

القرية . فما كان من القس باريّس إلا أن طلب النجدة من خارج القرية ، فأقبل نصف دستة من القساوسة ، من القرية والقرى المحيطة بها .

عندما بدأ القساوسة صلواتهم الجماعية ، كانت الفتيات تنصتن فى هدوء ، ثم بدأت تسودهن حالة من القلق ، رحن يتلوّين كلما ذكرت كلمة «الله» أثناء الصلاة . وانتهى الأمر بارتمائهن على الأرض فى حركات عنيفة ، وتصاعدت أصوات صراخهن ، ممّا أضطر القساوسة إلى التوقّف عن صلواتهم .

كعكة الساحرة

ثم تذكّر القس باريّس الأمة تيتوبا ، وما سمعه عن ممارسة أهل بلدها لسحر «أبياه» و«الفودو» ، وتساءل إذا كان لمثل أنواع السحر هذه صلة بحالة ابنته . بدأ يراقب تيتوبا بدقّة ، وذات يوم وجدها تأخذ شيئًا من وسط رماد النار وتطعمه للكلب ، وعندما سألها عن ذلك قالت «هى كعكة يا سيدى» ، فتأكد باريّس أنها «كعكة الساحرة» . كانت تلك الكعكة تصنع من حبوب الجاودار بعد طحنها وعجنها ببول الطفل المضار ، ثم تعطى للكلب . وكان الاعتقاد السائد أنه كلّما بدأ الكلب فى الاهتزاز ، تم الشفاء للطفل . لقد كانت تيتوبا تسعى إلى علاج حبيبتها الصغيرة إليزابيث .

استشاط غضب القس ، وراح يضرب تيتوبا بالعصا ، حتّى اعترفت بممارستها للسحر . كان من الممكن أن يبقى الأمر عند حدّ تيتوبا ، لكن

عندما سأل القس الفتيات عمّا إذا كانت هناك غيرها من النساء اللاتى يمارسن السحر، ذكرت أبيجيل اسم «السيدة جود» و«السيدة أوزبورن».

وفى ٢٢ فبراير ١٦٩٢، صدرت أحكام بالقبض على تيتوبا وجود وأوزبورن. وفى اليوم التالى أقبل قاضيان من المدينة، جون هاثورن وجوناثان كوروين. بدأت المحاكمة باستجواب سارة جود، التى أنكرت التهمة. وعندما استدار القاضى إلى الفتيات يسألهن أجمعن على ممارستها السحر. ثم بدأت إحداهن فى التلوّى والأنين معبرة عن ألمها، فتبعتها الأخريات بالصراخ والقيام بالحركات المتشنّجة، قائلات أن روح جود تعضّهن وتقرصهن. وكان هذا السند الوحيد للاتّهام. وحدث نفس الشىء عند محاكمة سارة أوزبورن، وبعد إرسال أوزبورن إلى السجن بشهرين توفّيت هناك.

تيتوبا والتعاقد مع الشيطان

وأخيراً، جاء دور تيتوبا.

كانت قد تعلّمت درسًا من ضرب القسّ لها بالعصا. فقد توقّف عن ضربها عندما اعترفت له بأنها تمارس السحر. سألها القاضى هارثورن «هل حدث لك أن رأيت الشيطان؟». فأجابت، «لقد حضر إلى الشيطان وطلب منّى أن أخدمه..». خيّم الصمت المطبق على من كانوا فى قاعة المحكمة، وتعلّقت العيون كلّها بالمتّهمة تيتوبا وهى تحكى قصتها.

على مدى ثلاثة أيام، راحت تتحدّث بكل ما هو عجيب. قالت إن الشيطان يأتى إليها متخفيا، على صورة قط أو فأر أو خنزير، وإن كان غالبًا ما يتخذ هيئة رجل أسود طويل بشعر أبيض. كان يقول لها إنها طارت فوق عمود، والتقت بساحرات غيرها من بوسطون ومدن أخرى. وأن الساحرات اللاتى على هيئة سارة جود وسارة أوزبورن وغيرهن، كنّ يأمرنها بأن تقرص البنات الصغيرات، حتّى إليزابيث التى كانت تحبّها.

ساد أهل القرية من الفلاّحين شعور بالارتياح، فها هى إحدى الساحرات تعترف على نفسها، وعلى الأخريات.. وهكذا فتحت أبواب الجحيم على كل من تلصق بها تهمة السحر، صدقًا أو كذبًا.

القسّ الذى حضر وجبة الشيطان

وفى شهر إبريل، حدثت الصدمة الكبرى. لقد قالت الفتاة الصغيرة آن باتنام التى كانت تتزعم توجيه الاتّهامات بالسحر، بتأثير من أمّها المصابة باضطراب عصبى، أنها كانت تسير فى المكان الذى يقال أن الساحرات كنّ يجتمعن فيه، لتناول وجباتهنّ الشيطانية، من الخبز الأحمر المغموس فى الدم. ثم توقّفت آن فجأة وصاحت «أوه.. مخيف.. مخيف. ها هو القسّ يأتى!.. ما هذا؟ هل القساوسة من السحرة أيضاً؟..». لم تكن قد تعرّفت على شكل ذلك القس، ولكنّها اكتفت بذكر اسمه، القسّ جورج باروز، الذى كان القسّ السابق لقرية سالم.

بديهي، أن القضاة ترددوا في أمر القبض على القسّ، لكن رواية البنت تدعّمت بما قالته ميرسي لويس، التي كانت تعمل خادمة عند القسّ، قبل أن تعمل خادمة عند أهل البيت. فصدر الأمر بالقبض عليه، بينما يتناول الطعام مع أسرته.

وتكرّرت القصّة مع القبطان جون آلدن، الذي كان قبطانًا محترمًا، كانت عائلته قد أبحرت إلى القارة الجديدة، على المركب الشهير (ماي فلاور) في عام ١٦٢٠، ضمن أوّل أفواج المهاجرين. وفي الجلسة الأولى لمحاكمته، عندما نظر القبطان إلى الفتيات اللاتي يتّهمنه، انكمشن وسقطن على الأرض. وعندما شعر أن هذا سيتّخذ دليل إدانة له، سأل القاضي «لماذا لا تسقط أنت أيضًا على الأرض عندما أنظر إليك؟». لكنّهم تجاهلوا سؤاله وأرسلوه إلى السجن.

إلاّ أن آلدن كان مصمما على عدم تعليق حياته على كلمات تنطق بها فتيات مختلات. فقام برشوة حارس السجن، وفر على حصان إلى مكان خفي، وظل به حتّى انقضت حمّى الاتّهام بالسحر.

عودة العقل إلى سالم

في شهر يونية، كانت الفتيات قد اتّهمن ما يزيد على مائة شخص، من سالم وغيرها من المدن والقرى المحيطة بها. وتواصلت المحاكمات والإدانات وعمليات الشنق. ومع مرور الزمن، تضاعف

عدد المتهمين، وأحكام الإدانة، من بين ٢٠٠ متّهم صدر الحكم بالإعدام على ٣٠ منهم.

كان حاكم ماساشوستيس خلال هذا يحارب الهنود الحمر عند الحدود الكنديّة. وعندما علم بما حدث في غيابه، عزل القاضي وعيّن محكمة جديدة، أسقطت تلك الاتّهامات الجزافية، وأطلقت سراح المسجونين. واكتشف الجميع أن بنات قرية سالم المراهقات افتعلن ذلك كلّه، باعتباره فرصة ذهبيّة للهروب من قيود التنشئة الدينية المترمّتة، التي كانت تشيع في بعض المجتمعات البيوريتانية.

واليوم، تحولت قرية سالم إلى مزار سياحي، والبيت الذي كانت تتم فيه المحاكمات أصبح متحفًا يتردّد عليه السوّاح من أنحاء أمريكا.

(٥)

الماسونية.. وأسرار المهنة

حركة البنّائين الأحرار الماسونيين، كما نعرفها اليوم، ترجع فى أصولها إلى طائفة الحرفيين الذين يعملون فى البناء فى العصور الوسطى.

لقد كان البنّاء فى العصور الوسطى يتمتّع بمكانة لا بأس بها، وخاصّة الذى كان يتعامل مع الأحجار الحرّة -وليس كتل أحجار المباني- ذلك النوع الذى كان يستخدم فى العقود والأقواس وتزيين المباني، وهكذا حظوا بلقب «البنّائين الأحرار»، لأنّهم كانوا أحرارًا فى التنقّل حيثما يرغبون، دون القيود التى توضع على غيرهم من الحرفيّين، من جانب الإقطاعيين وسلطات المدن. وفى مقرّ نقابتهم، الذى كان يطلق عليه «المحفل»، كانوا يحفظون أسرار صنعتهم وتجاربهم، وقواعد تعاملهم الأخلاقيّة. وكانت لهم علامات سريّة للتعرّف على بعضهم، لكى يمنعوا الآخرين من اختراق عالمهم الخاصّ.

هيكل سليمان . كرمز

بدأ الماسونيون فى قبول أعضاء الشرف لجماعتهم، فى القرن السابع عشر ببريطانيا، وكان ذلك قاصراً على السادة أصحاب الاهتمام بالهندسة المعمارية (المهنة التى نمت خارج إطارهم)، وعلى أولئك الذين كانت تجذبهم عناصر السريّة فى حركة البنّائين الأحرار. وشيئًا فشيئًا، ظهر شكل جديد للماسونيين، يضم غير الممارسين، أو هواة التأمّل النظرى. وكانوا يضفون على خامات وأدوات وأساليب ممارسة البناء بعض المعانى الرمزية، بعضها له صلة ببناء «هيكل سليمان».

وكانت الحركة الماسونيّة مبجّلة للغاية فى بريطانيا. وكانت دائما تضمّ بعض الشخصيّات البارزة، بما فى ذلك بعض أفراد العائلة المالكة البريطانية. وفى المستعمرات الأمريكية، كان قادة الحركة الثورية منضمّين إلى الحركة الماسونية، مثل چورچ واشنطن وبنيامين فرانكلين، وألكسندر هاملتون. والمبادئ التى كانت الماسونية تنادى بها (ونادى بها أيضًا بعض مستنيرى القرن الثامن عشر)، تضمّنها الدستور الأمريكى الجديد، مثل حرية الحديث والصحافة، وحريّة العبادة، والحكومة النيابية، والتحرّر من الحبس الإذعانى، غير القانونى.

التناقض مع الحكومات الأوروبية

وقد شهدت الماسونية بعض الأوضاع المضطربة فى أوروبا. ورغم

قبول بعض الملوك لنشاط الحركة، بل ورغم انضمام فردريك الكبير حاكم بروسيا، إلا أنها أثارت الريب والشكوك بالنسبة للباقين، وشعروا أن الأفكار المتحرّرة التي تأتي بها الماسونية يمكن أن تشكّل تهديدا لقوّتهم، لذلك فعلوا كل ما يمكنهم لكبتها.

كما أن الماسونية سرعان ما دخلت في تناقض مع كنيسة روما الكاثوليكية. وفي عام ١٧٣٨، وبعد حوالي ٢٠ سنة من تأسيس الحركة الماسونية في أوروبا، قام البابا كليمنت الثاني عشر بشجبها، وهدّد الكاثوليكيين الذين يدخلون في عضويتها بعذاب العزل. وقال إن الماسونية لابد وأن يكون لديها ما تخفيه، وإلا ما أصرّت على السرّية. واتّهم الماسونية بأنها مفسدة للأخلاق، ومنحرفة، وخطرة على «سلامة الأرواح»، ويغلب الشكّ في «تجديفها».

بعض الدول الأوروبية الكاثوليكية، مثل فرنسا والنمسا، تجاهلت ببساطة تحذيرات البابا كليمنت. لكن أسبانيا والبرتغال تقبّلت آراء البابا، فكان يتم القبض على الماسونيين، وتعذيبهم على يد السلطات.

البعد السياسي للماسونية

على مدى تاريخ الماسونية، كان دائما ما يثور الشك في أنها وراء جميع أنواع الانقلابات السياسية: الثورة الفرنسية، والحرب الأهلية في

أسبانيا، واغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند عام ١٩١٤، الذى اندلعت فى أعقابه الحرب العالمية الأولى.

وكان افتراض اشتراك الماسونيين فى مؤامرة على نطاق العالم، وربط نشاطها بمؤامرات اليهود أساء إلى صورة الماسونية فى معسكرات اعتقالهم.

والأكيد، هو أن الماسونية شاركت فى بعض الحركات السياسية. حركة الكاربو نارى، وهى جمعية سرّية ظهرت فى بدايات القرن التاسع عشر ساعية إلى توحيد إيطاليا، كانت تتشكّل أساسًا من الماسونية. وكانت الفلسفة الليبرالية للجمعية، موازية تمامًا للعقائد الماسونية.

وقبل هذا، كانت بصمات الماسونية واضحة على الثورة الفرنسية، ١٧٨٩-١٧٩٢، فقد ذكر بعض الكتّاب أن الأحداث العنيفة كانت من تصميم مجموعة صغيرة تضم ٢٧ ماسونيا. مثل هذه الفكرة تلقى إعراضًا من المؤرخين المحدثين، لكن الثابت هو أن بعض الكتّاب الذين أشعلت أفكارهم الثورة، على الأقلّ فى مراحلها المبكّرة، كانوا أيضًا من الماسونيين.

العقل.. فى الكنيسة نوتردام

لقد فرّخت الثورة الفرنسية عددا من العقائد والجماعات، وإن لم يستمر أىّ منها أكثر منها من عدّة سنوات.

فى البداية الأولى ، كانت العقيدة «العقل» ، التى أصبحت لبعض الوقت الدين الرسمى لفرنسا . لقد تحوّلت الكنائس فى أنحاء فرنسا إلى هياكل لعقيدة «العقل» حيث حلّت مراسيم مناسبة لها محلّ القدّاس التقليدى . وفى كتابه «التاريخ الدينى لفرنسا المعاصرة» ، يصف أدريان دانسيت هذه المراسيم بقوله «وضعت الصخرة فى مكان جوقة المرتّلين بكنيسة نوتردام ، وأقيم حولها معبداً دائريا ، مخصّصًا لعبادة (الفلسفة) . وفى صباح العاشر من نوفمبر ، وبحضور أعضاء الكوميونة ، بدأ موكب الفتيات اللاتى سرن أعلى وأسفل تلك الصخرة ، يحيين خلال هذا (شعلة الحقيقة) كلّما مررن بجوارها . وخرجت من المعبد واحدة من مغنّيات الأوبرا بملابس بيضاء فوقها عباءة زرقاء ، وغطاء رأس أحمر (وهو رمز فرنسا) ، وجلست على عرش تغطّيه الحشائش . كانت المغنية تمثل (العقل) ، فراحت الفتيات تغنين فى ترتيلة لها . وبعد ذلك ، جرى حمل الآلهة على أكتاف أربعة مواطنين ، ثم بدأ المشاركون والحاضرون بعد ذلك اجتماعهم» .

لم تستمر عقيدة «العقل» أكثر من بضع سنوات ، عندما أعاد نابليون السلطة الكنسية لكنيسة روما الكاثوليكية .

* * *

العقائد والجماعات ، على مدى التاريخ عديدة للغاية ومتنوّعة إلى أبعد حدّ . بعضها مثير ، وبعضها مسلّى ، وبعضها مستفزّ ، وبعضها قاتل ومميت . وتقع عقائد العنف الدموية فى التصنيف الأخير .

وحتّى في نطاق العقائد القاتلة، نجد ما يقع ضرره وأذاه على صاحب العقيدة أو المشاركين فيها، كما هو الحال في مأساة الانتحار الجماعي لجماعة «بوّابة السماء». لكن هناك من بين عقائد العنف الدمويّة ما يحيق ضرره بالأفراد والمجتمعات والحكومات.

(٦)

جماعة «العائلة»، وجرائمها الدموية

بعد ظهيرة ٩ أغسطس عام ١٩٦٩، نشرت الصحف الأمريكية على صفحاتها الأولى، خبر المذبحة، التى تمت فى منزل منعزل على الطراز الريفى بالقرب من مدينة لوس أنجلوس، عثر فيها على خمسة رجال مذبوحين، من بينهم الممثلة السينمائية المعروفة شارون تيت - حضر رجال الشرطة، بعد أن استدعتهم مديرة المنزل وسط حالتها الهستيرية، فوجدوا الآتى: أولا جثة شاب يدعى ستيفين بيرانت، أطلق عليه الرصاص وطعن عدة مرات، داخل سيارته أمام المنزل. وفى حديقة البيت، وجدوا جثتى أبيجيل فولجر وجاى فرايكوفسكى، من أصدقاء شارون تيت. وقد حمل جسداهما طعنات متعددة، مع رصاصتين فى جسد فرايكوفسكى. أمّا فى داخل البيت، وفى حجرة المعيشة، تمدد جسد شارون تيت ومصفف شعرها جاى سيبرينج، بعد إطلاق الرصاص عليهما، ثم طعنهما بسلاح عدة طعنات. وكانت الممثلة شارون تيت حامل فى طفلها الأول من المخرج السينمائى رومان بولانسكى.

أكلوا البطيخ في مطبخ القتيل

بعد هذه المذبحة بعدّة شهور، وخلال المحاكمة التي كانت الأطول في التاريخ الأمريكي، بدأت تظهر معالم القصة الشاذّة التي يصعب تصديقها. قام بهذه الجريمة البشعة ثلاثة أفراد، جماعة تطلق على نفسها اسم «العائلة»، من أتباع شخص يبلغ من العمر ٣٤ سنة، سبق أن صدرت ضدّه أحكام قضائية، اسمه تشارلز مانسون. وفي الليلة التالية لهذه الجريمة، قام اثنان من القتلة، بالاشتراك مع عضو آخر في «العائلة»، وبقيادة مانسون شخصيا، بقتل صاحب أحد محال السوبر ماركت لينو لابيانكاس وزوجته روز ماري، بعد أن تلقّيا ٦٧ طعنة. وعند انتهاء الجريمة، ذهب القتلة إلى المطبخ وأمتعوا أنفسهم بأكل البطيخ والشيكولاتة باللبن. ولم ينسوا إطعام كلاب عائلة لابيانكاس، فقد كانت جماعة «العائلة» معروفة بأنّها رفيقة بالحيوانات!.

الحرب الأخيرة على الأرض

الثابت، أن القتلة لم يكن يعرفون أيا من الضحايا السبع. وكان السبب في القتل الذي أعلنه مانسون، هو «حان الآن وقت (هلتر سكيلتر)»، التي تعني الفوضى المتدافعة.

وقد قالت سوزان آتكنز، واحدة من القتلة، عن (هلتر سكيلتر) «إنّها ستكون كل الحروب التي جرت على الأرض، مرصوصة واحدة فوق الأخرى.. لن يمكنكم إدراك كيف سيكون الأمر عندما نرى كلّ إنسان

يحاكم نفسه، ثم ينتقل إلى محاكمة جميع الآخرين على سطح الأرض». ويعتقد مانسون أنّها ستكون حرباً عرقية، بين البيض والسود، وفيها ينتصر السود. ثم سيدركون بعد ذلك، تدريجيا، أنهم عاجزون عن الحكم، ومن ثمّ يسلّمون مقاليد الحكم إلى مانسون.

ومن المعروف أن مانسون يكره السود، وهناك احتمال أن يكون والده -الذي لا يعرف عنه مانسون شيئًا - ممّن تجرى فيهم دماء زنجية، لكنّه يكره أيضاً «مؤسّسة» الجنس الأبيض. وهو يشعر بمرارة نحو عالم الفن في هوليوود، لعدم اعترافه بموهبة مانسون، في مجال أغانى البوب. ومن الممكن أن نعرف شيئًا عن الخلط في عقل مانسون، عندما نسمع ما يردّده في مجال غناء البوب. لقد حملت إحدى اغنياتهم اسم «هلتر سكيلتر»، ويزعم مانسون أنّه سمع البيتلز في هذه الأغنية يطلبون منه أن يذهب إليهم في لندن. وفي أغنية أخرى لهم، الثورة رقم ٩، سمع البيتلز يهمسون له «تشارلى، تشارلى، أرسل لنا برقية».

النساء مجرّد مصيدة

لقد كان اسم الأغنية متمشّيا مع الفقرة المحببة لمانسون في سفر الرؤيا، بالكتاب المقدس، والتي تقول ما معناه. لا تتحسر على ما يقومون به من جرائم، ولا ما يمارسونه من سحر، ولا على ما يقترفونه من زنا، أو سرقة.

كان مانسون يعيد ترديد هذا، مرّة بعد مرّة، أمام أفراد «العائلة»،

زارعا فيهم الاعتقاد بسلامة القتل، قائلا إن الموت لا معنى له، وإنّه مجرّد «تغيير»، لأن الروح لا تموت.

كان يحتقر النساء، وكان غالبًا ما يقول إنّ الغرض الوحيد لوجودهن هو خدمة الرجال وحمل أطفالهم. لكنّه وجد أنّه من المفيد أن يضم بعضهن إلى «العائلة»، كطعم لاصطياد الرجال. وكان على كلّ واحدة أن تقبل مضاجعة أيّ رجل بلا تردّد، عندما يأمر مانسون بذلك. وكان يتباهى بقدرته الجنسيّة، لكنه اعترف أنّه يفضّل الرجال.

وفي معظم الأحيان، كان يطلب أن تغيب النساء عن ناظريه، وأن يقمن بالغناء خارج الكوخ الريفي الذي كانت الجماعة تقيم فيه. أمّا اللاتي كان لديهن أطفال، فقد كان يمنع تحدّثهن مع أطفالهن، إلاّ بلغة غير مفهومة، أو سيم، حتّى لا يرتبط الأطفال بهن. وكان مانسون غالبا ما يضرب نساء الجماعة، ويهدّدهن بقطع أثدائهن!.

المسيح والشيطان في آن واحد

ومع ذلك، كانت نساء الجماعة يحببنه. وإذا شئنا الدقّة، كن يعبدنه. وقد وصفت واحدة من أفراد الجماعة ضرب مانسون لها قائلة «لم أكن أحب ضربه إيّاي، لكنّني كنت راغبة في أن أرى الأشياء بطريقة مختلفة. والطريقة الوحيدة التي كان يعرفها تشارلي لكي يصل بي إلى هذا، هي الضرب».

وقالت سوزان آتكنز، واحدة من أفراد الجماعة، للمدّعى العام أثناء التحقيق: إن مانسون «كان الرجل الوحيد الذى قابلته.. وكان رجلاً كاملاً. إنه لم يكن يصغى لأقوال أى امرأة. لم يكن ليقبل أن تملى امرأة عليه ما يفعل. إنه الرجل..».

بل اعتقدت أنه أكثر من مجرد رجل، أنّه يسوع المسيح! والحق أن مانسون لم يحدث أن قال بأنّه المسيح، لكنه كان يقول إنه عاش من قبل، منذ ٢٠٠٠ سنة، وإنّه مات على الصليب. وبديهى، أن الإيحاء كان واضحًا بدرجة كافية. ومع ذلك، فقد كان يشير إلى نفسه، فى أوقات أخرى، باعتباره الشيطان أو الروح.

كان ذلك الخلط فى الهويّة، من المعالم البارزة فى عقلية جماعة «العائلة». والمسألة تمضى إلى ما هو أبعد من اتّخاذ أسماء مستعارة، لقد كان نوعا من الغطس الذى تقوم به الشخصيّة، لكى تتوحّد مع العقل الجماعى للجماعة. لقد كانوا جانبا من شخصيّة مانسون، وكان هو جانبا من شخصيّاتهم.

قالت إحدى أفراد «العائلة» بول واتكنز، بعد التحقيقات «لقد أصبحت أنا تشارلى.. كل شىء كنته كان تشارلى. لم يعد باقيا أىّ شىء منّى. وكل الأفراد الذين كانوا فى (العائلة)، لم يعد باقياً منهم شيئاً، لأنّهم أيضاً كانوا تشارلى».

تاريخ العقليّة المختلّة

والخلط الذى اتّسمت به شخصية كل فرد من الجماعة، كان متوافقًا

مع خلطهم بين الحب والكراهية. لقد حاولت سوزان آتكنز أن تفسّر لشركية حجرتها في السجن، كيف استطاعت أن تقدم على قتل شارون تيت: «لقد أحببتها، ولكي أقدم على قتلها، كنت أتصوّر أنني أقتل جانبا منّي عند قتلها . . . لابد أن يكون قلبك عامراً بالحب الحقيقي، حتى تستطيع أن تفعل هذا بالآخرين».

ويمكننا أن نصل إلى تفسير جزئي لهذه العقلية المختلّة، بامتحان التواريخ الفردية للأعضاء. مانسون نفسه، أمضى طفولته مستجيبا لنقله بين الأقارب والجيران، فتعلّم السرقة، ومرّ بحالات متعاقبة من إيداعه الإصلاحيّات والهرب منها. وعندما بلغ عمره ١٦ سنة، وصفه أحد الباحثين الاجتماعيين الذين كانوا يتولّون حالته بأنه «غير اجتماعي بشكل عدواني». وكان الأعضاء الآخرون في الجماعة، ذوي علاقات سيئة مع أسرهم، وقد عرف مانسون كيف يستغلّ الاضطراب النفسي، الناتج عن ذلك.

والكتاب الذي كتبه المدّعي العام باجوليوزي، «جرائم مانسون»، جاء فيه «وكانت لجميعهم، تقريبًا، نزعات عدوانيّة متواصلة، تجاه المجتمع وكلّ ما يمثله، قبل أن يلتقوا بمانسون. وكل ما فعله مانسون هو أن يستخرج إلى السطح الكراهية الساكنة فيهم، وميولهم الضمنيّة للعنف السادي، بحيث تتركّز على عدو مشترك، هو المؤسّسة. لقد استطاع أن يفقد الضحايا شخصيّاتهم، وأن يحوّلهم إلى رموز. ولا شك أن الرمز يكون أسهل من طعن الشخص».

«العائلة» لم تنشأ من فراغ

لم يظهر مانسون وعائلته من فراغ . فالبيئة التى تكونت فيها «العائلة» كانت تتضمّن ، ثقافة تعاطى المخدرات والعقاقير ، وتنوّعا هائلا كاملاً من عنف الضائعين ، وعبادات الشيطان ، وعقائد التضحية بالدماء التى انتعشت فى كاليفورنيا ومهّدت الطريق لعقيدة «هلتر سكيلتر» .

كان هناك ، على سبيل المثال ، دعوة كيركى لدم الكلب ، التى يعبد أتباعها الآلهة المتناسخة كيركى ، والذين كانوا يضحّون بالحيوانات على شواطئ لوس أنجلوس . وتشير الدلائل إلى أن بعض أعضاء «عائلة» مانسون كانوا يشاركون فى تلك الطقوس ، ولا ريب أنّهم وجدوا طريقة للتوفيق بين هذه الطقوس ، والتزامهم الرفق بالحيوان .

وكانت هناك جماعة «تقويم الهيكل الشرقى» ، التى كانت أكثر انتشاراً ، والتى تأسّست فى ألمانيا عام ١٩٠٢ ، ووصلت إلى إنجلترا فى ١٩١١ ، عن طريق كراولى الساحر الذى تحدّثنا عن تاريخه من قبل . وكانت السيدة جورجينا برايتون ، زعيمة فرع فى الجماعة فى جنوب كاليفورنيا تستخدم العقاقير والضغوط النفسّية ، من أجل إيقاظ قوى الكراهية لدى الأعضاء . وكان من بين نشاطاتها ، محاولة إرسال ذبذبات الكراهيـــة إلى حىّ الزنوج فى واتس ، على أمل أن يشـــرعـــوا فى إضراباتهم .

كانوا يؤمنون ، كما كان مانسون يؤمن ، بتهيؤ الأوضاع لحرب

عرقيّة ، واتّخذوا التدابير للهروب منها بالاختفاء فى الصحراء . وكما كان أتباع عقيدة كيركي ، كانوا يذبحون الحيوانات للتضحية .

بعد القبض على مانسون ، فى أعقاب مقتل الزوجين لابيانكا ، لقى مانسون شيئًا من الدعم لجماعته ، من أسوأ الجماعات وأصحاب العقائد السريّة . وقدأطلقت جريدة «طفل الشلاثاء» السريّة ، والناطقة بصوت الهيبيز ، على مانسون لقب «رجل العام» . كما ظهرت فى المتاجر التى تبيع المخدّرات ، شارات على شكل الأزرار تحمل شعار «مانسون الحرّ» .

(٧)

الحشاشون.. والجنة المصنوعة

إذا عدنا بالتاريخ إلى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد، وربما قبل ذلك، وجدنا أتباع عقيدة «ديونيساس» إله الخصوبة والخمر عند الإغريق. وكانوا ينغمسون في جنس جماعي مجنون، كان في بعض الأحيان يقود إلى تمزيق ضحية حيوانية حية، ثم أكلها.

وعلى خلاف ممارسات عقيدة «ديونيساس»، كانت عقيدة القتل المنظم، بقلب بارد، التي كان يأخذ بها «الحشاشون». هذه العصابة المنظمة التي وهبت نفسها للقتل، التي تشكلت في القرن الحادي عشر الميلادي، وأشاعت الرعب في كل من الدول الإسلامية والمسيحية، على حدّ سواء. وقد يكون في كتابات مؤرخي العصور الوسطى مبالغات في إيراد وقائع جرائم «الحشّاشين»، لكن الذي لا ريب فيه أنها كانت من أكثر الجماعات قسوة.

انتسبت جماعة الحشّاشين إلى الفرق الشيعية غير الملتزمة بحرفية الدين الإسلامي، والتي إنسلخت عن الإسلام في أعقاب وفاة الرسول، وقد تضمنت هذه الفرق عددا من الجماعات السرية. ورغم الإدانة والمقاومة من جانب أهل السنة، فقد واصلت الشيعة نشاطها، مستمدة

قوتها من إيمانها بقيمة المعاناة والتضحية في سبيل العقيدة . إلا أن العقيدة الشيعية نفسها انقسمت بعد ذلك إلى قسمين .

وكان الانقسام نتيجة للخلاف حول توريث الإمامة ، أو قيادة الشيعة . فعندما توفى الإمام السادس للشيعة خلفه ابنه الأصغر ، فى تجاهل للابن الأكبر إسماعيل . وهكذا أطلق الشيعيون المناصرون لإسماعيل على أنفسهم اسم « الإسماعيلية » . وقد تضاعف نفوذ الإسماعيليين بعد ذلك ، ومن خلال العمل السرى عليا تساع الدولة الإسلامية ، إلى الإطاحة بالخليفة السنى فى بغداد . وكادوا أن يصلوا إلى بغيتهم ، إلا أن الأتراك الذين كانوا من أهل السنة سيطروا على جانب كبير من الدولة الإسلامية

الإنطلاق من عش النسر

أصبحت بلاد فارس واقعة تحت الحكم التركى . وفى فارس ، ولد الطفل الذى سيصبح زعيم جماعة « الحشّاشين » ، الحسن بن الصباح . فى شبابه انضم إلى المذهب الإسماعيلى ، وفى عام ١٠٦٧ قام برحلته الطويلة إلى القاهرة ، حيث أمضى ثلاث سنوات فى بلاط الخليفة . ثم عاد إلى فارس ، لينشر العقيدة الإسماعيلية ، بالوسائل العسكرية .

وعندما اكتسب عددا لابأس به من الأتباع ، معتمدا جزئيا على كراهية الفرس للأتراك ، متعهدا بطردهم من فارس ، أصبح الحسن بن الصباح صاحب سلطة على أتباعه . واستطاع أن يستولى على قلعة «الموت » ،

أو عش النسر، التى تجثم فوق الجبال، وتسيطر على الوادى الممتد تحتها. من هذه القلعة، مستفيدا من حمايتها، بدأ الحسن حملاته فى النشاط التبشيرى والتدميرى، وأوفد قتلته المستعدين للتضحية بحياتهم.

واسم «الحشّاشين»، مستمد من الحشيش ومستخدميه. ويتساءل المؤرخون، عما إذا كان الولاء المطلق الذى إتصف به القتلة الذين كان الحسن يوفدهم، مرجعه إلى أنهم كانوا مخدرين. إلا أن أحد الكتّاب قد رجح أن القتلة استمدوا اسمهم، لمجرد التشابه بين أفعالهم، والجنون الذى يظهر على المخدرين.

أسطورة الجنة المصنوعة

ومن بين الأساطير التى تحف حركة «الحشّاشين»، أسطورة أن الأتباع من الشباب المدرب على استخدام السلاح، كان يجرى تخديرهم ونقلهم إلى حديقة جميلة قريبة من القلعة التى يتدربون فيها.

وعندما يستعيدون وعيهم، يجدوا أنفسهم وسط الأزهار الجميلة، وأشجار الفاكهة النادرة، والنافورات التى تدفع المياه عاليا، والأروقة المطلية بماء الذهب. وكانت هناك مجموعة من الفتيات الجميلات المدربات على فنون الحب والموسيقى والرقص، يتفرغن لتلبية رغبات الشباب المشدوهين بما هم فيه.

وبعد عدة أيام من العيش فى هذه الجنة المصنوعة، يتم تخدير الأتباع مرة ثانية، ويعاد بهم إلى بلاط الحسن بن الصباح، الذى كان ـ

على عكس حديقة الملذات - يتسم بالتقشف والتطهر إلى أبعد حدّ. وهناك، يتم إخبارهم أنهم قد حظوا بمذاق مسبق للجنة، التى سيدخلونها على الفور، إذا ما فقدوا حياتهم خلال تنفيذهم للمهام التى يوفدهم إليها زعيمهم الحسن بن الصباح.

وسواء كانت حكاية الجنة المصنوعة حقيقية أم لا، فالثابت أن الأتباع كانوا يؤمنون بقوة فى العقيدة الإسماعيلية، بحيث لا يرقى خير أو شر إلى مستوى فضيلة إطاعة الإمام، الذى كان الحسن ممثله.

الإشارة القاتلة

ويسجل أحد الذين زاروا قلعة " الموت " فى مذكراته، واقعة تتطابق مع ما أورده العديد من المؤرخين الأوروبيين.

كان الزائر يقف على أحد استحكامات القلعة مع الحسن، عندما أشار الأخير إلى حارس عند أحد المتاريس، قائلا «هل ترى هذا النصير المتحمس الذى يحرس أعلى البرج ؟ »، ثم استطرد الحسن قائلا : «انظر . . » ثم أعطى إشارة من يده للرجل، الذى قام على الفور برفع ذراعيه إلى أعلى، كنوع من التحية لزعيمه، ثم ألقى بنفسه من إرتفاع ٧٠٠ متر تقريبا، ليلقى حتفه.

غير أن معظم أوامر الموت التى يصدرها الحسن، لا تكون عفوية، وإنما تدخل فى صميم إستراتيجياته. لم تكن تتوفر له الأعداد الكافية لشن حرب منظمة على الأتراك، ولكنه كان قادرا على اصطياد قادتهم،

ومن يتعاونون معهم من العرب، بشكل فردي، وبهذا يتفوق على قوتهم.

كانت ضحيته الأولى نظام الملك، وزير السلطان التركي. ووفقا لما يقال، كان الحسن ونظام الملك والشاعر عمر الخيام زملاء دراسة. وتقول القصة إنه عندما كانوا في شبابهم، يسر نظام الملك للحسن وظيفة في بلاط السلطان، ثم لما شعر بعد ذلك بتزايد قوة صديقه، حرص على تدبير خروجه من البلاط. ومن هنا يمكن أن يكون الثأر الشخصي وراء تصميم الحسن على قتل نظام الدين.

تذكّر المتطوّع بو طاهر أرّاني على هيئة أحد المتصوفين، واقترب من الوزير عندما كان يصعد إلى المحفة، أثناء خروجه من خيمته، مدعيا أنه جاء يطلب معروفا. أخرج المتطوع من ثيابه خنجرا، وطعن نظام الملك في صدره. وعلى الفور، قام حراس الوزير بقتل المتطوّع.

رجل الجبال العجوز

خلال السنوات الثلاثين التالية، إستطاعت قوات الحسن الصغيرة أن تخترق وترعب وتغتال أعداءه السياسيين أو الدينيين. وأصبح من غير الممكن بالنسبة لأيّ شخص في السلطة أن يجازف بالخروج من داره، دون أن يرتدي الدروع تحت ثيابه. فقد كان رجال الحسن يصطادون ضحاياهم علانية، في مسجد أو سوق أو طريق عام، وكانوا هم أنفسهم غالب ما يقتلون أنفسهم مباشرة بعد ذلك.

بالرغم من إستراتيجية الحسن الماكرة، فإنه لم يصل إلى تحقيق حلمه الأكبر. فقد بقى الأتراك فى بلاد فارس، وسقط الخليفة المصرى فى أيدى المناهضين له. وقد توفى الحسن بن الصباح، «رجل الجبال العجوز» عن عمر يناهز التسعين.

وقد خلف الحسن فى تنفيذ سياساته اثنان من رجاله، ولكن عند منتصف القرن الثانى عشر، عادت الحركة الإسماعيلية فى فارس، إلى شكل أكثر تقليدية من الإسلام.

أما الفرقة السورية من جماعة «الحشّاشين»، التى كان قد أسسها الحسن، فقد تحولت إلى القتل مقابل المال. فكانت تأخذ فى بعض الأحيان جانب صلاح الدين الأيوبى، وفى أحيان أخرى جانب القوات الصليبية!.

وقد بقيت جماعة الحشاشين السورية والتى كانت تتمرس فى قلعة «مصياف» بالقرب من مدينة حماة محتفظة بقوتها واستقلالها، وأكسبتها فظائعها وقسوتها سمعة واسعة، عاشت فى التاريخ الأوروبى لعدد من القرون.

غير أن الجماعة التى كانت أكثر غموضا وشرا من جماعة «الحشّاشين»، هى جماعة «السفاحين» الهندية، التى لم تتوافر لها الدوافع المفهومة، كما كان الحال مع الحشّاشين. والتى ارتبطت ممارستها بعبادة الإلهة الهندية «كالى» إلهة الموت.

(٨)

السفاحون .. أتباع إلهة الموت كالى

رغم عنف جماعة « الحشّاشين »، إلا أن دوافعها السياسية كانت مفهومة، وإذا كنا ننفر من أساليب التسلط التى مارسها الحسن بن الصباح على أتباعه، وما تتضمنه ممارساته من عنف ودموية بالنسبة للأعداء والأتباع فى الوقت نفسه، فإن الانتقال إلى جماعة « السفاحين » الهندية، يصل بنا إلى جماعة أكثر غموضا وشرا. تلك الجماعة السرية التى كانت تقتل تزلفا للإلهة الهندية « كالى ». إلهة الموت، التى يدعى أتباع هذه الجماعة أنها قد أوكلت إليهم قتل الشياطين الذين يهددون الأرض. وبمنطق يصعب قبوله، تحول الشيطان فى عقول « السفاحين» إلى المسافرين، وخاصة فى رحلات الحج.

كل عام، وفى موسم الحج، كان يجرى قتل آلاف الحجاج، وهم يقومون برحلتهم عبر طرق الهند، فى أغلب الأحيان، لم يكن أهل الحاج يحاولون البحث عن سر إختفائه. ففى بلد تشيع فيها الكوليرا،

وثعابين الكوبرا، والعصابات العادية بالإضافة إلى « السفاحين »، لم يكن أحد يفاجأ إذا اختفى المسافر.

الخنق . . أداتهم المفضلة

ظهرت هذه الجماعة الدموية في العصور الوسطى. ورغم أنها نذرت نفسها لإلهة هندية، فقد كانت تتكون أساسا من المسلمين، ويعتقد بعض الكتاب بوجود علاقات بينها وبين « الحشّاشين ». لكن ما اتصفت به هذه الجماعة من سرية ولؤم في ممارسة أفعالها، يتناقض بشدة مع المنهج الواضح والانتحاري، الذي كانت جماعة الحسن بن الصباح تلتزم به.

وكانت تطلق أيضا تسمية « فانسيجار » على كل فرد من أفراد هذه الجماعة، وهي كلمة هندية تعني الخنّاق، لأنهم كانوا يخنقون ضحاياهم. كان سلاح الجريمة « رومال » التي تعني وشاحًا أو كوفية، كان الواحد منهم يلفها حول وسطه.

كانت إجراءاتهم يجري تطبيقها بحرص وكفاءة. يرقد أفراد العصابة على امتداد طرق الحجاج، ويسعى اثنان أو ثلاثة منهم إلى التعرف على أحد الحجاج - الذي عادة ما يكون من الأغنياء - ويصاحبونه في رحلته. وكانوا يخلفون علامات على الطريق لكي يتعرف عليها باقي أفراد العصابة، ويعرفوا أنهم قد وقعوا على صيدهم. وبالتدريج، ينضم إلى ركب الحاج عدد آخر من أفراد العصابة.

ووفق إشارة متفق عليها، يلف أحدهم وشاحه حول رقبة الحاج، ويتم إحكام التضييق بمساعدة آخر. وفي الوقت نفسه، يقوم الثالث بإمساك قدمي الضحية ويجذبهما إلى الخلف، بحيث يستلقي الحاج ووجهه إلى الأرض، مما يجعل مقاومته ضعيفة.

مراسم استرضاء كالي

وفي بعض الأحيان، ينضم السفاحون إلى جماعة من الحجاج، ثم يقتلونهم جميعا. بعد القتل، يبدأ تقطيع أوصال القتيل، وتشويه وجهه، من ناحية لكي لا يسهل التعرف عليه، ومن ناحية أخرى كخدمة لإلهة الموت الدموية كالي. ويتخصص أحد أفراد كل عصابة في القيام بطقوس المجزرة ا. ثم يحفرون قبرا لما بقي من القتيل، مستخدمين معاولهم، التي يعتبرونها من الرموز المقدسة لعقيدتهم. في بعض الأحيان، تعسكر العصابة فوق القبر، وتقيم احتفالها فوقه، حتى تخفي آثار الحفر الحديث.

بعد القتل، تمارس العصابة طقوس العيد «تابوني»، التي تضفي على ممارساتهم طابع المهمة المقدسة. يقيمون خيمة، ويبسطون قماشا على الأرض. يجلس زعيم العصابة على قطعة القماش، محاطا ببعض أكثر الخنّاقين خبرة، أما باقي أفراد العصابة - من ذوي الرتبة الأقل - فيجلسون خارج الدائرة.

أمام الزعيم، وفوق القماش، يوضع المعول المقدس وقطعة من

الفضة، كقربان رمزى للإلهة كالى، وبعض السكر الخام (جور)، الذى يعتبرونه طعاما مقدسا. يحفر الزعيم حفرة صغيرة فى الأرض ويضع فيها بعض السكر، بينما يردد صلوات كالى، ثم يرش الماء المقدس فوق الحفرة والمعول، فى الوقت الذى يردد فيه الأتباع صلاتهم.

التعاسة فى البعد عن العصابة

هذا الاحتفال تكون له آثاره العميقة على المشاركين. قال فرينجهيا، زعيم إحدى عصابات السفاحين، للضابط الإنجليزى الذى قبض عليه: «جميعنا يشعر بالشفقة أحيانا، لكن السكر الذى نتناوله فى طقوس تابونى يغير من طبيعتنا. وهو من الممكن أن يغير طبيعة الحصان. دع أى شخص يتذوق ذلك السكر، لكى يصبح سفاحا، رغم معرفته لجميع شئون التجارة والحرف، أو احتكامه على أعظم الثروات فى العالم. لم أكن أرغب أبدا فى الطعام، كانت أسرة أمى ثرية، وأقاربها فى أعلى المناصب. وأنا شخصيا كنت فى وظيفة عالية.. ومع ذلك كنت مبتئسًا على الدوام، كلما ابتعدت عن العصابة، فأجد نفسى مضطرا للعودة إلى السفاحين. لقد أتاح لى أبى أن أتذوق ذلك السكر القدرى عندما كنت صبيا، ولو قدر لى أن أعيش آلاف السنين فلن أكون قادرا على الانتساب إلى أية حرفة أخرى».

كانت كلمة «قدرى» كلمة أساسية فى عقلية السفاحين. كانوا يؤمنون أن قدرهم هو القتل من أجل «كالى»، وأن ضحاياهم كان مقدر

لهم أن يموتوا . وبعيدا عن نشاطهم الدموى خلال موسم الحج ، كان السفاحون يلتزمون بحياة هادئة يسودها السلام ، بل وربما نموذجية .

حصانة الحرفيين !

فى الأيام الأولى لهذه الجماعات ، كانت تحكم عمليات القتل العديد من الضوابط ، التى كان التغافل عنها سبيلا للكوارث التى تحيق بهم .

ونظرا لأن «كالى» كانت امرأة ، فإن قتل النساء كان محرما عليهم . وكان محرما عليهم أيضا قتل المصابين بمرض البرص ، والعميان وذوى العاهات ، وأى شخص يسوق بقرة أو عنزة أنثى . وكان التحريم ينسحب على الحرفيين من صناع الذهب والحديد والنحاس . وكان الحدادون والنجارون والحجارون وصناع الأحذية ، يتنقلون من مكان إلى آخر دون تهديد من السفاحين .

وبين الحين والآخر ، كانت إحدى العصابات تخرق هذا العرف ، فكان كل ما يصيب العصابة من الكوارث يفسر بالخطأ الجسيم التى ارتكبته فى حق العقيدة . وعندما استقر الحكم البريطانى فى الهند ، خلال القرن الثامن عشر ، كانت وقائع مخالفة ضوابط العقيدة شائعة وعندما شرعت الحكومة فى حملتها لاستئصال جماعات السفاحين ، وبدأت تقبض عليهم وتحاكمهم وتعدمهم ، آمن العديد من السفاحين أن

هذا مرجعه إلى ما ارتكبوه من خرق لمحرماتهم الخاصة ، وأنهم هم الذين جلبوا على أنفسهم هذه اللعنة .

وواصل البريطانيون حملتهم للقضاء على هذه الجماعات، فأصدروا عفوا عن أفراد العصابات الذين يمدون الحكومة بمعلومات ثمينة عنها . وعند منتصف القرن التاسع عشر لم تعد جماعات السفاحين تشكل تهديدا لأحد .

(٩)

جماعات الحب والجنس

جماعات العنف المجرد والعنف السياسي، تشكل مجرد جانب من التنوع الواسع من العقائد والجماعات التي عرفها البشر. ومنذ عصر الإمبراطورية الرومانية، عرف العالم العديد من الجماعات ذات العقائد الخاصة، غير العادية، في مجالي الحب والجنس.

وفي عهد الإمبراطور هارديان، عندما كان المسيحيون الأوائل يحددون عقائدهم، قدم كاربوكراتيس، الذي عاش في مصر، تنويعا شعبيا للدين الجديد. وكان من بين ما قال به، إن البشر مضطرون أخلاقيا لارتكاب الخطيئة، لأن الخلاص يستلزم منطقيا حالة الخطيئة، التي يتم خلاصه منها! . ومن وجهة نظره أن الله قد زرع الشهوة في الروح البشرية، بالتحديد من أجل هذا الهدف. وعليه، فإن الشهوة وما تضفيه على حياة الإنسان من مباهج، هي في واقع الأمر إجبارية. والأكثر من هذا، ما قاله من أن الله قصد أن تكون كل الممتلكات على المشاع بالنسبة لجميع البشر، وأن المرأة تدخل ضمنها.

ومن بين العقائد العديدة التى انتشرت فى الإمبراطورية الرومانية ، كانت عقيدة كاربوكراتيس من أكثرها قبولا ، واجتذابا للأتباع . فلا شك أن الأنباء الطيبة التى أتت بها المسيحية ، تصبح أكثر حلاوة ، بهذا التصديق على نوازعهم الطبيعية . فالكثير من الناس فى روما القديمة – وقبل ذلك وبعده – يمكنهم الاستمتاع بالملذات فى ذاتها ، دون محاولة تبريرها بقواعد أخلاقية ما ، لكن هناك من هم أكثر منهم بكثير ممن يتحسن شعورهم تجاه ممارسة الجنس ، إذا ما عثروا على مبررات لذلك . وعقيدة كاربوكراتيس ، لم تكن الأولى ولا الأخيرة التى توفر مثل هذا التبرير .

فى مواجهة تجريم الجنس

كانت الكنيسة ، فى أيامها الأولى ، تنكر مثل هذه الأفكار ، وكانت تعاليمها بالنسبة للجنس متأثرة بشدة بكتابات القديس بولس ، الذى قال إن امتناع الرجل عن لمس المرأة يعتبر أمرا طيبا . ومع ذلك ، فمن أجل تحاشى الزنا ، لتكن لكل رجل زوجته الخاصة ، لأنه أفضل للإنسان أن يتزوج من أن يحرق فى النار .

هذا الموقف المعادى للجنس ، لم يكن أكثر شيوعا ممّا كان الأمر عليه فى بريطانيا وأمريكا ، خلال القرن التاسع عشر . وكان من بين أفكار العصر أن السيدة الفاضلة لا يمكن أن تستمتع بالجنس . لذلك لم يكن غريبا أن تفرز هذه الفترة تنوعا من العقائد والفرق الدينية ، التى تشترك

جميعا في موقفها من الجنس. بعضها سار على خطى القديس بولس، داعيًا إلى العزوبية . والبعض الآخر، مضى في عكس اتجاه الاقتصار على زوجة واحدة، الأمر الذى كانت تأخذ به المجتمعات الغربية، ممّا فتح باب العلاقات الحرة. والقليل منها، زايد على موقف النفاق الذى ساد العصر، باعتبار أن إشباع الرغبات الطبيعية، هو تعبير عن الروحانية .

الأب برنس، وأعياد الحب

وكانت جماعة الأجابيمويين من الفئة الأخيرة، فكانت تدعو إلى الحب الروحاني. وقد ظهرت الطائفة في إنجلترا في أربعينيات القرن التاسع عشر، على يد القس هنرى جيمس برنس، الذى بدأ حياته في الكنيسة الإنجليزية، ثم ما لبث أن ذاعت شهرته كمبشر فصيح. كانت الناس تتدافع نحو أبرشيته الصغيرة، قادمة من بيوت تبعد عدة كيلومترات. وكانت السيدات تجدن في برنس فتنة وسحرا. وسرعان ما اكتسب شهرة جديدة، وتناثرت الشائعات عن سلوكه الفاضح، فوصلت إلى أسماع الأسقف، الذى حرم على برنس أن يخطب ويعظ في الكنيسة.

وبلا تردد، انطلق برنس، بمساعدة شاب من كنيسته، يعظ في الهواء الطلق، محققا نجاحا شعبيا كبيرا. وفي برايتون، أقام كنيسته الصغيرة، وبدأت تنجذب إليه شخصيات المجتمع. كان يقول لجماهيره، إنه

مختار من الله ، باعتباره الرجل الكامل ، غير القادر على الخطيئة . وقال أيضا إنه خالد ، وأن كل من يتبعه يصبح خالدا أيضا . ومن أغرب ما كان يقوله لهم إن أتباعه يمكنهم أن يمارسوا الجنس بلاخوف من الخطيئة .

وبفضل الأموال الكثيرة التى استمدها من أتباعه الأغنياء ، امتلك برنس ضيعة تصل مساحتها إلى ٢٠٠ فدان ، بالقرب من سباكستون فى سمرست ، وأطلق عليها « آجاپيمون » ، أى مقر الحب . وكان المقر عبارة عن بيت كبير ، وإسطبلات ، وأكواخ ، وكنيسة غير مكتملة البناء ، أنفق عليها بسخاء لتوفر الرفاهية لستين من أتباعه الذين أقاموا معه فى المقر . وبالإضافة إلى « المحبوب » ، وهو الاسم الذى أصبح ينادى به برنس ، لم يكن يقيم فى البيت الكبير سوى أتباعه من النساء . وكانت القاعة الرئيسية فى البيت الكبير تستخدم ككنيسة صغيرة .

عروس الحَمَل

فى هذه الكنيسة الصغيرة ، كان برنس يقوم بالخدمات الدينية ، التى أصبحت قليلة مع مرور السنوات . وكان فيها ، بالإضافة إلى مستلزمات الكنيسة من مذبح وأرغن ونوافذ من الزجاج المعشق ، منضدة بلياردو . وهكذا ، كان بإمكان الأتباع أن يمتعوا أنفسهم بمباراة بلياردو ، أو أن يسترخوا وفى يد كل منهم كأسا من الخمر ، المخزون بوفرة فى حجرة التخزين بالكنيسة .

وفى الخدمات الدينية التى كانت تقام فى الكنيسة ، كان برنس يتفوق على نفسه فى النفاق الدينى والاعتداء على حرمات الدين . كان قد أغوى عددا من أتباعه النساء ، تحت سمع وبصر زوجته التى كانت متوسطة العمر ، إلا أن فكرة جديدة استولت عليه ، وهى أن يختار عذراء صغيرة جميلة ، لتكون عشيقته الخاصة .

كانت الفتاة التى اختارها يتيمة تدعى زوى باترسون ، كانت قد حضرت بها إلى المقر والدتها الأرملة . وعندما توفيت الأم ، تركت زوى التى أصبحت فى عقدها الثانى ، ذات جمال ملفت ، فى رعاية «المحبوب» .

وقام برنس بحركة ماكرة ، تمهد له الفوز بزوى ، فأعلن للأتباع أن الله قد اختاره لتطهير المجموعة من جميع خطاياها ، وأن سبيله إلى ذلك يكون بأن يختار إحدى العذارى الصغيرات لتكون " عروس الحمل " . أما عن شخص هذه العذراء بالتحديد ، فقد أعلن برنس إنه لا يعلم . لكنه أكد لهم أن الله سيكشف عن شخصها فى الوقت الذى يحدده .

الشيطان يرتكب إثمه الأخير

ذات مساء ، تجمع المخلصون فى الكنيسة ، وسط جو من البخور الذى ينطلق من الأركان والقناديل والموسيقى الهادئة من الأرغن ، ليشهدوا عملية اختيار عروس الحمل . دقت الطبول ، تعلن مقدم برنس

الذى راح يخطو بملابسه الحريرية بين الأتباع، إلى أن توقف أمام زوى المرعوبة التى كانت فى السادسة عشر من عمرها. قبّلها، وأعلن إنها المختارة، وقادها من يدها إلى مسكنه الخاص.

مع مرور الوقت، أنجبت زوى طفلا. ولم يكن هذا الطفل الأول الذى تنجبه لبرنس نساء من الأتباع. الأطفال الذين أنجبهم فى بريستول، نقلهم إلى سباكستون. وعندما يأتى إلى الكنيسة بعض الزوار، كان يتم إخفاء الأطفال عن الأنظار. لأنه وفقا للعقيدة، ولادة طفل - شأنها شأن الموت - يجب أن تحجب عن أتباع «المحبوب».

أثار حمل زوى، بصفة خاصة، حيرة واندهاشا بين الأتباع، فالمفروض أن ارتباطها ببرنس، باعتبارها «عروس الحمل»، يقتصر على مجرد العلاقة الروحية الغامضة. فتدارك برنس الأمر بأن قال لأتباعها إنه لن يحدث حالات حمل ووضع بعد ذلك، وفسر ولادة ابنه باعتبارها، حركة الشيطان الأخيرة اليائسة ضد الله.

قضايا وغرامات

فى أعقاب هذه الواقعة، بدأ بعض الأتباع يبدون تشككا تجاه «المحبوب» وإدعاءاته، وبادر البعض الآخر بالانسلاخ. ومن وقت لآخر، كان برنس يواجه القضايا، التى أقامها عليه أقارب النساء اللاتى ضللهم فى وكر الحب الذى يقيمه، وأقامها أيضا أولئك الذين استولى

على أموالهم. وكان عليه أن يدفع آلاف الجنيهات، ويحاول ضغط الإنفاق في مقر الحب. فأرغم الأتباع الذين خلا وفاضهم من المال على القيام بالأعمال المنزلية.

ومع هذا كله، ظل برنس دكتاتورا على الجماعة. بل إنه بقي قادرا على حض أتباعه على الامتناع عن الاتصال الجنسي، فقد كان هو فقط، «المحبوب»، المختار لممارسة هذه المتع. لقد أصبح الكسل، وليس الشهوة، هو الخطيئة التي سادت «أجابيمون» في السنوات الأخيرة، التي شهدت انهيار جماعة برنس. كان الأتباع يأكلون ويسكرون ويتعاطون المخدرات.. ويلعبون البلياردو!.

وفي عام ١٨٩٩، خزل برنس أتباعه بوفاته، كأي شخص آخر.

سمايث - بيجوت، الخليفة

كان المفروض بعد ذلك أن يغلق مقر الحب أبوابه. لكن بعض أفراد الجماعة وجدوا ضالتهم في شخص جديد، أحد رجال الكهنوت في كنيسة إنجلترا، جون سمايث - بيجوت.

وقد سار بيجوت على خُطا زعيمه السابق برنس، متخذا سلسلة من «عروسات الروح»، كما كان يسميهن، من بين ٥٠ من الشابات الجميلات المتعلمات، اللاتي كن يشكلن في جماعته «الدائرة العليا» من الأتباع، على حد تعبيره.

كانت زوجة بيجوت هى الوحيدة التى تؤمن بعقيدة « أجابى» من بين المقيمين فى « آجابيمون» . وقد اكتسبت محبة أهل القرية ، بزيارتها للمرضى والمسنين منهم ، وبهداياها من الطعام للفقراء ، ولهذا ، أهملها بيجوت .

وبعد عامين من إقامته فى سباكستون ، اقترن بيجوت بروث بريس «عروس الروح الرئيسية» ، كما أسماها ، وهى فتاة جميلة ذات عينين مفعمتين بالعاطفة ، أنجب منها ثلاثة أطفال . ومع مرور السنين ، بدأ بيجوت يميل إلى فتاة أصغر سنا من الأتباع . وعندما أبدت روث مشاعر الغيرة ، عاقبها علانية داخل الكنيسة بطلاقه منها ، وبتنصيبه الأخت جريس ، فتاته المفضلة ، كعروس الروح الرئيسية الجديدة ، فى نفس اللقاء .

قام بيجوت بمراسيم تجريد روث من شاراتها وشعاراتها وأرديتها ، الدالة على مكانتها فى الجماعة كنوع من الردع ، وكدرس للآخرين . بروح رواقية ، وبلا انفعالات ، تحملت روث هذه الإهانات ، وبعد وقت قصير غادرت مقر الحب ، الذى كان بيتا لها طوال ١٥ سنة ، محرومة من اصطحاب أبنائها ، بناء على أوامر « المحبوب» . وراحت تتجول فى أنحاء إنجلترا بلا نهاية ، إلى أن عادت ثانية إلى المقر ، نتيجة لطلب بيجوت . عادت لتجد أن بيجوت قد فقد أكثر أتباعه ، كما فقد تسلطه عليها . فلم يبقها معه سوى شفقتها عليه .

وفى عام ١٩٢٧ ، توفى بيجوت عن عمر يناهز ٧٥ عاما . وكما

حدث من قبل مع برنس، ثارت دهشة من بقى من أتباعه لموت الخالد !

والغريب فى الأمر، أن جنازة بيجوت حضرها أتباع من إنجلترا والنرويج وفرنسا حيث كان قد أنشأ فروعا لعقيدته فى هذه المواقع.

حتى فى أوج انتعاش هذه العقيدة، كان من الصعب تصنيفها كمجتمع للحب الحر. فقد كانت معتقدات أتباعها الجنسية مختلطة إلى أبعد حد بشخصيتى المحبوب الأول والثانى، اللذين كانا يحتكران النشاط الجنسى لنفسيهما.. واللذين كانا على درجة عالية من الادعاء، بحيث يصعب تحديد أبعاد هذه العقيدة.

مجتمع أونيدا

وعلى العكس من ذلك، كانت عقيدة « مجتمع أونيدا ». أسس هذه الطائفة فى أمريكا، فى أربعينيات القرن التاسع عشر، جون هامفرى نويس، فى الوقت الذى انتعشت فيه تجارب الحياة الطائفية. وكان نويس يقول إنه بعد دخول المسيحية، يمكن للفرد أن يتلقى مباركة ثانية، يعفى بعدها من الاتهام بارتكاب أى خطيئة. وكان يدعو إلى إلغاء الزواج، بما يتضمنه من تملك. ووصل إلى الدعوة بمشاع النساء وباقى الممتلكات.

كان الناس خارج الجماعة يصدمون بحياة أتباع أونيدا غير العادية، وبالتصريحات التى تشبه ذلك الذى ورد فى واحدة من نشرات نويس:

« الوصية الجديدة هي أن نحب بعضنا البعض، ليس كأزواج ولكن جماعيا. نحن مطالبون بأن نحب بعضنا بتوهج، تقاليد العالم تمنع الرجل والمرأة المؤهلين من الحب المتقد، لكنهما إذا أطاعا المسيح يكون عليهما أن يفعلا ذلك. فالحب ليس خطيئة. القابلية للحب لا يمكن أن تحترق بعد شهر عسل واحد، أو يشبعها حب واحد. على العكس من ذلك، كلما مارست أكثر كلما كنت أقدر على الممارسة. هذا هو قانون الطبيعة.. ».

(١٠)

النهاية المأساوية لفرسان الهيكل

كانت بداية فرسان الهيكل شديدة الاختلاف عن نهايتهم المأساوية . كانوا أصلا يطلقون على أنفسهم اسم « الجنود الفقراء للمسيح وهيكل سليمان » . جماعة صغيرة من الفرسان ، أخذت على عاتقها حماية الحجاج إلى الأراضي المقدسة . فبعد نجاح الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٩ ، أتيحت للحجاج الأوروبيين زيارة القدس وغيرها من الأماكن المقدسة . غير أن طريق الحج كان محفوفا بالمخاطر ، يتعرض فيه الحجاج لسلب نقودهم ، وحياتهم أحيانا . فقرر هوج باين ، أحد محاربي الحملة الصليبية الأولى ، أن يشترك مع مجموعة من الفرسان في محاربة العصابات وحماية الحجاج .

عرف ملك القدس بالدوين الثاني الدور المفيد الذي يمكن أن تقوم به هذه المجموعة من الجنود المسيحيين ، فأفرد لهم جانبا من السراي الملكي ، بالقرب من موقع هيكل سليمان . وكانت هذه أول الهدايا العديدة التي تلقاها فرسان الهيكل ، على مدى ٢٠٠ سنة تالية ، وأتاحت لهم نفوذا قويا في أوروبا .

لا يغتسلون !

كانوا يحظون بالتقدير، في بداية أمرهم، لما عرف عنهم من زهد وتقشف وشجاعة، فكانوا يفتخرون بأنهم لا يبدلون ملابسهم حتى تتهرأ، أو تمزقها سيوف الأعداء. كتب عنهم سانت برنار كبير الرهبان في دير كليرفو « تراهم يمتنعون عن تمشيط شعورهم، ونادرا ما يغتسلون، يعلوهم العرق والتراب ». وكان يثني على جهدهم الدائب في جمع الأتباع من الفرسان، وجعلهم ملتزمين بمبادئ الجماعة.

وكان سانت برنار هو الذي أقنع الراهب الكبير هوج دي باين، بقيادة الجماعة. وأول ما فعله هوج، هو أن وضع قانون فرسان الهيكل، الذي يغطي كل ممارساتهم وتنظيماتهم وواجباتهم وطقوسهم. وقد أدرك هوج أهمية تغليف الطقوس بقدر من السرية، يميز الجماعة عن غيرها. ومع ما وفرته هذه السرية من عنصر جذب للفرسان الجدد، كانت وبالا على الجماعة في آخر الأمر، وألصقت بهم تهمة التجديف والكفر التي حوكموا بها.

الأموال تتدفق

في عام ١١٢٨، لم يكن يلقى نظام فرسان الهيكل سوى الاعتراف به، والهدايا والأموال التي تتدفق عليه. وعندما قام هوج بجولته الأوروبية، تنافس الملوك والنبلاء في دعم النظام. وكانت هداياهم تتراوح بين الغابات والأراضي والمزارع والقلاع، بالإضافة إلى قرى بأكملها.

وبعد هذا بعدة سنوات ، أعطت الكنيسة فرسان الهيكل الحق فى أن تكون لهم كنائسهم الخاصة ، وكهنوتهم الخاص ، بالإضافة إلى إعفائهم من مكوس الكنيسة والضرائب المدنية . وكانوا بهذا ، يتبعون بابا روما مباشرة .

ومن البديهى ، أن استقلالهم هذا لم يمض بلا مقاومة . لقد عارض الأساقف والكهنة هذه السلطة التى تمتع بها فرسان الهيكل ، غير أن البابوية وفرت دائما الدعم الكامل لهم ، لأنها كانت تسعى إلى تقوية الوجود المسيحى فى الأراضى المقدسة ، الأمر الذى كان يوفره فرسان الهيكل . بل كان الحكم بالطرد من الكنيسة ، جزاء كلا من تخول له نفسه مهاجمة فرسان الهيكل .

كارثة الحملة الصليبية الثانية

وقد أثبت فرسان الهيكل أنهم أهل للثقة التى وضعت فيهم ، خلال كارثة الحملة الصليبية الثانية ، ما بين ١١٤٦ و ١١٥٠ .

لقد حاربوا بشجاعة وإقدام ، للحيلولة دون أن تتمخض الحملة عن كارثة شاملة . وعن ذلك قال وزير لويس السابع ملك فرنسا « لم يحدث أن فروا من قتال ، وكانوا يبدون الطاعة الكاملة لمعلمهم الكبير » .

وفى السنوات التالية ، دخل فرسان الهيكل العديد من المعارك ، بعضها كانوا هم الذين أثاروها . ولم يكن جميع كبار المعلمين الذين تعاقبوا على قيادة النظام على نفس القدرة على التضحية والإيثار ، التى

كانت لهوج باين . ففى ظل الأوضاع السياسية المضطربة فى الأراضى المقدسة، حيث كانت الجماعات المتصارعة من المسيحيين والمسلمين تتنافس من أجل المزيد من النفوذ، توافر لفرسان الهيكل العديد من الفرص، لاكتساب القوة وللتأثير فى مجرى الأحداث .

وهكذا، تمتع فرسان الهيكل بكثير من الأمجاد الدنيوية ، نتيجة لوضعهم كمجتمع مستقل ذاتيا داخل العالم المسيحى، ولثرائهم الكبير وأملاكهم الواسعة « كان دخلهم السنوى فى أوروبا وحدها ، ما يوازى ٩٠ مليون دولار » .

صفقات مالية مع الجميع

كان الجانب الأكبر من قوتهم مستمد من وضعهم كرجال المال الرئيسيين فى أوروبا والشرق الأوسط . وبفضل قلاعهم المتناثرة شديدة التحصين، أصبحوا فى وضع مثالى لحراسة ونقل الأموال . بل إنهم كانوا يعقدون صفقات مع المسلمين، فى أوقات الهدنة .

من بين الملوك الذين استدانوا منهم، ملك فرنسا فيليب الرابع ، الذى جاءت نهاية فرسان الهيكل على يديه .

فى بدايات القرن الرابع عشر، فقد المسيحيون سيطرتهم على فلسطين، فانتقل المركز الرئيسى لفرسان الهيكل إلى قبرص . لكن، بقى النظام على قوته السابقة فى أوروبا . فى ذلك الوقت كان الملك فيليب

يمر بأزمة مالية، أوقع نفسه فيها، ووجد أن الأفضل من مواجهة مسئولية رد ما استدانه منهم، القضاء على نفوذهم.

وبدأ تنفيذ خطته، بدمج فرسان الهيكل مع جماعة أخرى، هي فرسان هوسبيتالر في نظام واحد، تحت اسم « فرسان أورشليم »، بحيث يكون المعلم الكبير للنظام الجديد من البيت المالك الفرنسي. لكن خطته رفضت من النظامين.

اتهامات بالجملة

وجاءت الفرصة المواتية للملك فيليب على يد أحد الأعضاء المنشقين عن فرسان الهيكل، ويدعى إيكيو دي فلورين، الذي نقل إلى الملك حكايات شنيعة عن فضائحهم، تتضمن التجديف، والانحراف الجنسي وعبادة الشيطان. وقال له إن طقوس ضم الفارس إلى النظام كانت تتضمن البصق على الصليب وتقبيل فم وسرة ومؤخرة الشخص الذي يقوم بتعميده كواحد منهم! . هذا، بالإضافة إلى أنهم كانوا يمارسون الشذوذ الجنسي، ويعبدون الشيطان.

كانت هذه التهم، هي بالضبط ما يسعى فيليب إلى سماعه. قام بزرع بعض الجواسيس داخل النظام لكي يجمعوا له القرائن، وفي الوقت نفسه سعى أن يحظى بتأييد البابا كليمنت الخامس، الذي كان يدين للملك فيليب ببقائه على الكرسي البابوي. غير أن البابا تردد، وأرسل

إليه يقول « هناك الكثير مما لا يزال من المستحيل إثباته . وعلى أى حال فإننا نعتمد كثيرا على اتصالاتك فى هذا الشأن » .

شعر الملك فيليب أن البابا قد أعطاه الضوء الأخضر ، فاندفع إلى تنفيذ خطته .

تعذيب واعترافات

فى ليلة ١٢ أكتوبر ١٣٠٧ ، قام رجال الملك فى جميع أنحاء فرنسا ، بالقبض على حوالى ١٥ ألف شخص ، من فرسان الهيكل ، ومن الحرفيين والعمال الذين يعملون فى ممتلكاتهم .

وكان من بين المقبوض عليهم ، المعلم الكبير ، وقائد فرسان الهيكل فى ذلك الوقت ، جاك دى مولاى ، والذى كان فى باريس .

تم استجواب أفراد النظام على أيدى المحقق القضائى ، وتعذيبهم على أيدى ضباط الملك ، من أجل الوصول إلى أكبر قدر من الاعترافات . ولا عجب إن كانت هذه الوسائل مؤثرة ، فمن بين ١٣٨ فارسا تم استجوابهم فى الشهر الأول ، اعترف ١٢٣ بأنهم بصقوا على الصليب أو « قريبا منه » ، ضمن مراسم تعميدهم . وإن تضاربت الأقوال بشأن عبادتهم للشيطان . اعترفوا أنهم خلال المراسم السرية ، كانوا يعبدون نوعا من الرموز ، لكن اختلفت الأقوال حول الرمز ، هل كان جمجمة بشرية مرصعة بالجواهر ، أم كانت من رفات معلم أكبر سابق ، أم رأس ذات ثلاثة وجوه .

الكتاب المعاصرون اللذين يهتمون بالموضوع، وافقوا بشكل عام على أن التجديف كان يشكل جانبا من مراسم التعميد، ربما كنوع من اختبار الطاعة. وأنه ليس عجيبا بالمرة أن تكون هناك ممارسات جنسية شاذة، بين ٢٠ ألف رجل محظور عليهم صحبة النساء.

كرة قدم سياسية

خلال السنوات السبع التى أعقبت القبض على فرسان الهيكل فى فرنسا، أصبح النظام الذى كان مصدر فخر وقوة ذات يوم، أشبه ما يكون بكرة قدم سياسية. دافع البابا المتردد عن حقه فى توجيه الاتهام إلى فرسان الهيكل، بادئا بتعليق سلطات التحقيق الفرنسية، ثم مصدرا بيانا بابويا داعيا فيه جميع الملوك والأمراء إلى القبض على فرسان الهيكل، ثم مجادلا الملك فيليب حول الإجراءات التى اتبعها فى تقديم النظام للمحاكمة.

بعد مماطلات وتحريات سابقة للمحاكمة قامت بها الكنيسة، بدأت المحاكمة العامة لفرسان الهيكل فى إبريل ١٣١٠، بإحدى مدن جنوب فرنسا. العديد من فرسان الهيكل تراجعوا عن اعترافاتهم السابقة دفاعا عن نظامهم، فجرى إحراق ٦٧ فارسا بتهمة العودة إلى الكفر. وقاد هذا إلى تمسك الباقين باعترافاتهم، خوفا على أنفسهم.

تواصلت المحاكمات على مدى عامين، ثم أعلن البابا فى بيان رسمى تحرر فرسان الهيكل من أوهامهم. واعترف أن الدلائل، كانت

فى أغلبها إشاعات واعترافات منتزعة بالإكراه لا تكفى لإدانتهم . لكنه ، الأب المقدس ، كان مقتنعا بجريمتهم ، وأن هذا فيه الكفاية بالنسبة لهم .

لعنات المعلم الكبير

معظم الذين أيدوا اعترافاتهم أطلق سراحهم . أربعة من كبار الفرسان ، من بينهم المعلم الكبير ، أنكروا اعترافاتهم فى المحكمة ، عادوا واعترفوا ثانية ، فحكم عليهم بالسجن مدى الحياة . وتم نطق الحكم عليهم ، فى اجتماع علنى أمام كاتدرائية نوتردام بباريس .

ثم حدثت المفاجأة ، خطب المعلم الكبير جاك ديمولاى ، قائلا للحشد ، « أعترف أننى مذنب حقا بالعار الأكبر ، لكن ذلك العار كان الكذب ، بقبول الاتهامات المقززة التى تم توجيهها إلى نظامى ، وأعلن الآن أن النظام برىء » ، إلى أن قال : « لقد وهبتنى المحاكمة الحياة ، ولكن على حساب أن أخون ، وبمثل هذا الثمن لا تكون الحياة جديرة بأن تعاش » . وفعل مثل ذلك أحد رفاقه ، فكسب الفرسان التعاطف الجارف من الجمهور ، مما اضطر الجند إلى سحبهما من الميدان .

أسرع الملك فيليب بالتدخل ، فتم حرقهما فى صباح اليوم التالى ، وبحضوره ووسط جمهور المشاهدين ، وعندما أحاطت بهما النيران ، صاح جاك ملتفتا تجاه الجمع الملكى « البابا كليمنت ، الوزير جويوم نوجارى ، الملك فيليب ، إنى احيلكم إلى محاكمة السماء ، قبل نهاية

هذا العام، لكى تنالوا عقابكم العادل ! ، عليكم اللعنة ! ، عليكم اللعنة!»

بعد شهر من هذا مات البابا كليمنت . وتبعه الملك فيليب بعد ستة أشهر ، فمات في رحلة صيد . أما الوزير نوجارى الذى لعب دورا كبيرا في هدم فرسان الهيكل ، فقد مات بعد ذلك بعدة أسابيع ، في ظروف غامضة .

(١١)

جماعات العودة الثانية

كما فى حالة فرسان الهيكل، وكما رأينا من قبل فى حالة جماعة الحشّاشين، غالبا ما نجد صلة بين العقائد والجماعات وبين أحد الأديان السماوية، بشكل أو بآخر. تاريخ الجماعات والعقائد، القديم والحديث، زاخر بالجماعات التى قامت على فكرة العودة الثانية للسيد المسيح.

يقول أنجاس هول، صاحب كتاب «العقائد الغريبة»، عن هذا «غالبا ما يظهر المسيح العائد، عندما يشعر الناس بالخوف والاضطهاد، ويبحثون عمن يمكن أن يقودهم خارج هذه المتاعب. وكان ذلك هو الحال فى بدايات القرن السادس عشر، بألمانيا والأراضى الواطئة، عندما بدأ الفلاحون الفقراء فى الاعتقاد بأن ما يعانونه من سوء المحاصيل، والتضخم المتصاعد، وانتشار الأوبئة، هو من علامات قرب نهاية العالم، وعودة المسيح إلى الأرض».

والانقسام الذى أحدثه مارتن لوثر عام ١٥١٧ فى الكنيسة

الكاثوليكية الرومانية، فتح الباب واسعا لتشكيل العديد من الطوائف، ومن بينها طائفة « التعميد الثانى »، والتى قالت بأن التعميد فى الطفولة لا معنى له، وأن الشخص لابد أن يعمد بعد البلوغ. وقد استمدت هذه الطائفة أتباعها من الفقراء، وبخاصة الفلاحين. وكانت تبشر بأن الحكومة القائمة على وشك السقوط، وأن الفقراء سيخلدون ويرثون الأرض بما عليها.

مون . . وكنيسة التوحيد

خير مثال على العقائد الدينية الحديثة، والأكثر نجاحا فى اكتساب الأتباع والحصول على التبرعات، هو الكنيسة التوحيدية التى أسسها سن ميونج مون، والتى تقول إن أتباعها يزيدون عن مليونى شخص فى أنحاء العالم، وأن معظمهم من الشباب بين العشرين والثلاثين. وتمتلك كنيسة التوحيد عقارات وأراضى واسعة، وخاصة فى الولايات المتحدة، بما فى ذلك المقر الرئيسى للكنيسة فى تاريتاون بنيويورك، بالإضافة إلى ما يصل إلى مائة مركز كنسى موزعة فى أنحاء البلاد.

ولد مون عام ١٩٢٠، فيما يعرف اليوم بكوريا الشمالية، عن أبويين مسيحيين. وعندما كان فى السادسة عشر من عمره، عام ١٩٣٦، وفى يوم عيد الفصح، زعم مون أن السيد المسيح أتى إليه، واختاره كنبى.

درس مون الهندسة فى اليابان لبعض الوقت، وخلال صلواته أعلن أنه قد اكتشف « عملية التاريخ ومعناه، والمعانى الأعمق للحكايات

والرموز التى فى الإنجيل، وهدف جميع الأديان ». وقد بدأ يعظ عندما كان عمره ٢٦ عاما. وأدخله هذا فى تناقضات مع حكومة كوريا الشمالية، فحكم عليه بالسجن لثلاث سنوات. وأيضا قبضت عليه سلطات كوريا الجنوبية، بتهمتى الاحتيال والعلاقات الجنسية غير الشرعية، إلا أن السلطات لم تتمكن من تقديم الأدلة الكافية للقضاء، ويردد أتباعه أن التهم كانت كيدية.

وبالإضافة إلى نشاطه الدينى، أقام مون شبكة من الصناعات تبلغ قيمتها عدة بلايين من الدولارات. وفى عام ١٩٧٤، تولى مون منصب رئيس مجالس شركات فى كوريا الجنوبية واليابان والولايات المتحدة، تتاجر فى العقاقير الصيدلية، والبنادق الهوائية، والتيتانيوم، والشاى.

نيكسون.. والطريق إلى الله!

ووفقا لرواية مون، فإن الله طلب منه أن يحمل رسالته الدينية إلى أمريكا، وأنه عندما وصل إلى نيويورك عام ١٩٧٢. وجدها بعيدة عن الله، مما جعله يبكى. وهو الآن، حاصل على تأشيرة إقامة دائمة، ويقيم فى بيت كبير فى ولاية نيويورك. وهو يسافر بشكل منتظم فى رحلات لإلقاء محاضراته، إلى ما يقرب من ٥٠ ولاية.

وكلٌّ من مون وجماعته يبدون إعجابا كبيرا بالولايات المتحدة وقادتها. وذات مرة، صرح مون بأن الولايات المتحدة فى ظل قيادة ريتشارد نيكسون، القائمة بفضل الإرادة الإلهية، يمكنها أن تجتذب

شعوبا أخرى إلى حظيرة الله، شريطة أن تواصل أمريكا تحولها الخلقى. وفى يناير ١٩٧٤، قام حوالى ألف شخص من أتباع مون بمسيرة أمام مقر الرئاسة الأمريكى، فى كابيتول هيل، يحملون لافتات مكتوب عليها «صلوا من أجل نيكسون، وسامحوا». وفى الأول من يناير، عند أوج أزمة ووترجيت، تم لقاء بين نيكسون ومون قال فيه الأخير للرئيس الأمريكى: «لا تخضع للضغط، وابق واقفا بإيمان راسخ». وصرح مون للصحافة قائلا «هذه الأمة هى أمة الله، ولهذا فإن مكتب الرئيس يكون مقدسا».

المسيح الثانى

العقيدة الأساسية فى كنيسة التوحيد، هى أن يسوع كان المسيح الأول، غير أن المسيح الثانى ولد فى كوريا عام ١٩٢٠ (سنة ميلاد مون). وأن يسوع أنجز الخلاص الروحى للبشرية، لكنه لم يكمل الخلاص المادى للإنسان.

مبادئ الجماعة يتضمنها كتاب «المبادئ المقدسة»، وهو كتاب من ٥٣٦ صفحة يجمع كتابات مون. وأتباع الجماعة لا يرون تناقضا فى فكرة ترقب المسيحيين لمسيح آخر، إلا أن المجلس القومى لكنائس المسيح رفض إعطاء عضويته لكنيسة التوحيد، لأنها لا تقبل الاعتراف بأن يسوع هو المسيح الوحيد. معظم أتباع مون يصفون أنفسهم بأنهم

أتباع الإيمان الصحيح . والكثير منهم ، قطعوا روابطهم العائلية ، ليمضوا الساعات الطويلة فى خدمة الجماعة ، فى جمع التبرعات لها وفى دراسة كتابات مون . وقد انسلخت أقلية صغيرة من الأتباع ، وقال بعضهم إن الجماعة أخضعتهم لتكتيكات تستهدف هدم شخصيتهم ، وإنهم كانوا يتعذبون نتيجة لقلة ساعات النوم والنظام الغذائى الفقير . وكانت كنيسة التوحيد هدفا متكررا لاتهامها بعمل غسيل مخ لأتباعها .

محاكمات ومسيرات مضادة

خضع مون وكنيسة التوحيد لهجمات متزايدة من مختلف المصادر . من بينها إتهامات لكنيسة التوحيد بمحاولة برمجة عقول الأعضاء صغار السن ، وإخضاعهم لضغط سيكلوجى . قال والد فتاة فى الثامنة عشر من عمرها ، أمام محكمة واشنطن ، أن الكنيسة قد مارست ضغطا شديدا على ابنتهما ، بحيث إنها أصبحت غير قادرة على التصرف وفق إرادتها الحرة . وقال بعض الشهود إن جماعة كنيسة التوحيد تنظر إلى مون باعتباره المسيح .

وفى فبراير من عام ١٩٧٦ ، توجه أكثر من ٣٠٠ شخص ، من آباء وأمهات أفراد الجماعة ، ومن جميع أنحاء البلاد ، إلى واشنطن فى محاولة لإقناع الحكومة بفتح تحقيق حول كنيسة التوحيد وغيرها من الجماعات الشبيهة . وكانت دعوى هؤلاء الآباء والأمهات ، أن تلك

الحركات خادعة وخطيرة، وتسعى إلى القيام بعمليات « غسيل مخ » لأبنائهم.

وقال أحد رجال علم النفس الاجتماعي، الذي درس حالة ١٥٠ من شباب الجماعة الذين خرجوا عنها، قال في جلسة الاستماع بواشنطن، أن نصف هؤلاء كانوا إما مصابين بانفصام الشخصية، أو بغير ذلك من الأمراض العصابية.

سيّارة العرش !

ثم هناك جورج بيكر، الأمريكي الأسود الذي أطلق على نفسه «الأب المقدس»، والذي كان أبوه وأمه من العبيد العاملين في مزارع القطن، في سوث كارولينا، وتوفي عام ١٩٦٥ مليونيرا !. وفي ثلاثينيات هذا القرن، عندما كانت دعوته في قمتها، بلغ أتباعه مئات الآلاف، وكانوا يعبدونه كصورة لله على الأرض.

في البداية اجتذب أعدادا ضخمة من زنوج جورجيا، ثم ضغطت عليه السلطات لكي يغادرها، فانتقل إلى نيويورك حيث اجتذب جمهور الفقراء، بوجبات العشاء السخية التي كان يقدمها. وفي عام ١٩٣٠، أعلن جورج « ولادته الثانية »، وأصبح اسمه « الأب المقدس »، وتقبلت جماهيره المتزايدة قدسيّته هذه، واعتبرته بطلا لجهده في تدبير العمل للمتعطلين، خلال فترة الكساد الأمريكي الشهيرة.

لكن خارج طائفة الأب المقدس كانت الصورة مختلفة. لقد اشتهر بكرمه، ولكن بنقود من ؟. فهو قد فرض على الأتباع أن يدفعوا ٩٠٪ من دخولهم للصندوق الاجتماعي، ومن ذلك الصندوق تسربت مبالغ طائلة إلى جيب الأب. كان يمتلك أسطولا من السيارات، بما في ذلك «سيارة العرش» الشهيرة، التي صممت خصيصا له، وتضم عرشا، وغطاء أبيض مزينًا بالنجوم الذهبية. بالضغط على زر، ينفتح السطح، كاشفا عن الأب المقدس جالسا على عرشه !.

ورغم تحريمه العلاقات الجنسية بين المتزوجين من أتباعه، إلا إنه تزوج مرتين، وكانت زوجته الثانية كندية ذات ٢١ عاما. ورغم زعمه أن زواجه كان روحانيا، فقد أظهرت التحقيقات التي أعقبت القبض عليه أنه كان يمارس علاقات جنسية غريبة مع مجموعة من صغار فتيات الجماعة.

(١٢)

الغرب والشرق يلتقيان

وهناك عدد من العقائد والجماعات التى تستقى تقاليدها من العقائد الشرقية القديمة . وكانت هيلينا بلافاتسكى ، مؤسسة المجتمع الثيوصوفى ، هى التى جلبت عقائد الشرق إلى الغرب ، فى سبعينيات القرن التاسع عشر .

وقد اكتسحت العديد من الحركات ، التى تستوحى الشرق ، أوروبا وأمريكا الشمالية . ومن أول هذه الحركات « فيدانتا » ، التى ما زالت منتعشة حتى يومنا هذا . وقد عرف الغرب هذه العقيدة عام ١٨٩٧ ، على يد الشاب الهندى فيفيكاناندا .

ورغم أن هذه العقيدة تقوم على نفس تعاليم الهندوسية ، إلا أنها تختلف كثيرا عنها . وقد وصل فيفيكاناندا إلى شيكاغو ، قبل شهرين من افتتاح برلمان شيكاغو ، يحمل مبلغا زهيدا من المال . كان يقرع الأبواب بحثا عن الأتباع ، إلى أن استطاع التعرف على سكرتير البرلمان ، الذى تحمس له .

وفى افتتاح البرلمان، سرق فيفيكاناندا الأنظار، برأسه الحليق، وردائه الطويل الأحمر المربوط عند الوسط بحبل برتقالى، وبالعمامة الصفراء على رأسه، وقد سمحوا له أن يلقى خطابا على أعضاء البرلمان. ورغم أن أحدا منهم لم يفهم ما قاله، فقد أثارهم بشكله وحديثه. بعد هذا، اتخذ مقرا له فى أحد الشوارع الجانبية فى نيويورك، فاجتذب عددا كبيرا من الجمهور، إلى حد أنهم كانوا يستمعون إليه وهم جلوس على السلالم الخارجية للبيوت التى فى ذلك الشارع. وعلى عكس الكثير من قادة العقائد الهندية الروحية، كان فيفيكاناندا شديد الإيمان بأهمية سلامة الفرد الجسمانية. فكان يوفد رجاله إلى القرى، يعالجون المرضى، ويقومون بالأعمال اليدوية، وأحيانا يحفرون المراحيض للفلاحين.

وفى عام ١٩١٦، كان لمجتمع « فيدانتا » فروعه فى سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس وبوستون وبيتسبرج وواشنطن. وكان يتم دعوة عدد من المعلمين الهنود، فى هذه المراكز، لإرشاد الدارسين حول كيفية الوصول إلى حالة الإدراك الأعلى.

ومع معلمى « فيدانتا »، وفد تنوع من الهنود، سوامى، وجورو، ويوجى. بعضهم جاد والبعض الآخر مزيف جاء يركب موجة الاهتمام المستجد بسحر الهند.

عقيدة « قوة الزهرة »

ومن الجادين، كان ماهاريشي يوجي، الذى عرف في الغرب باسم ماهاريشي. وقد ذاعت شهرته، عند اجتذابه عدداً من الأتباع المشهورين، مثل نجوم موسيقى البوب الإنجليز « البيتلز »، والممثلة السينمائية ميافارو. كان ماهاريشي يحمل الزهور، كرمز لرسالة الحب والسلام، ومن هذه الزهور نمت عقيدة « قوة الزهرة ».

العقائد التى من هذا النوع تقوم بشكل متنوع على برامج التأمل واليوجا والإدراك الممتد و« الإدراك الكونى ». وتعاليم هذه العقائد تتسم بالغموض أكثر من العملية. كل عقيدة من هذه العقائد يرأسها قائد يقول إنه قد وصل إلى مرتبة من التنوير تتجاوز بكثير الممارسين العاديين الذين قد ينضمون إلى العقيدة.

أكبر التنظيمات المعروفة فى هذا المجال، هى حركة « التأمل المتسامى »، وهى التنظيم الذى يمتد عبر العالم، تحت قيادة مهاريشى ماهيش يوجى، الهندى الذى لا يعرف أحد عمره على وجه التحديد. وهذه الحركة عادة ما ينظر إليها من جانب الرأى العام، على أنها تقنية، غير دينية أو طائفية، من تقنيات التأمل والتفكير المتسامى.

الأساس الهندوسى للحركة

فى بدايات هذا القرن، كان مهاريشى ماهيش يوجى أحد أتباع جوروديف، أحد قادة الهندوسية الفيداتية (الدين الرئيسى فى الهند)،

وأحد أكبر الرجال المقدسين تأثيرا فى الهند. وقد تعلم مهاريشى منه تقنيات اليوجا، التى قام بعد ذلك بتبسيطها على صورة « التأمل المتسامى»، التى أصبح يرمز إليها بتعبير (تى. إم). وتعد هذه الحركة بتوفير عدة منافع لأتباعها، ومنها التطوير الكامل لإمكانات الفرد العقلية والصحة الجسمانية الممتازة، والسلوك الاجتماعى السليم بشكل طبيعى. ويعتبر السلام العالمى من بين هذه المنافع التى تحققها الحركة.

ويمر الأتباع ببرنامج تدريب، تحت إشراف المرشد أو الموجه. ومن أهم جوانب هذا البرنامج تعلم تقنيات اليوجا وإجادتها.

د. سكوت الذى كان موجها فى الحركة ثم تركها. يقول إن التأمل المتسامى فى حقيقته دين، بصرف النظر عما يقوله قادة الحركة. وهو يقول إن الجانب الدينى من الحركة توارى عمدا، لإعطاء الحركة وتقنياتها قبولا علميا.

هار كريشنا

أما الحركة المعروفة باسم « هار كريشنا »، فهى الإحياء الأمريكى المعاصر لعقيدة كريشنا الهندية. ومن المشاهد الشائعة فى شوارع بعض المدن الأمريكية، مواكب أتباع هذه العقيدة بملابسهم الصفراء الفاقعة، وهم يرقصون ويغنون تعبيرا عن ولائهم للإله كريشنا.

تأسست هذه الحركة في نيويورك عام ١٩٦٦ ، على يد سوامي برابوبادا . أما حركة كريشنا الأصلية التي استوحتها الحركة المعاصرة ، فقد كان أول ظهورها حوالي عام ١٥٠٠ ميلادي ، في بلاد البنجاب . وتقول الجمعية التي تدير هذه الحركة أن عدد أتباعها في الولايات المتحدة ٣٠٠٠ ، معظمهم في المدن الكبرى . والجمعية لديها حوالي ٥٦ مركزا (ويطلق عليه أشرام)، في أنحاء العالم : هذا ما يزيد عن ٣٠ منها في الولايات المتحدة ، و١٧ في بريطانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا ، و٨ في دول الكومنولث ، و٤ في الهند .

معبد مدينة نيويورك لجماعة هار كريشنا ، يقيم فيه ١٢٠ من الأتباع ، من بينهم ٢٠ امرأة ، عشر منهن متزوجات من رجال المعبد . معظم الأتباع من الأمريكيين ، وحوالي الثلث من عائلات الطبقة المتوسطة اليهودية . أما متوسط الأعمار فيبلغ ٢٣ سنة .

سقوط الحياة السابقة

بمجرد دخول الأتباع في صفوف الحركة ، يعتبرون حياتهم السابقة صفحة مطوية ، فيتخذ كل منهم سما جديدا ، ويقسمون على الامتناع عن تناول اللحم والسمك والبيض والخمور وعدم التدخين أو الدخول في علاقات جنسية خارج إطار الزوجية ، وكذلك عدم التفكير أو الكلام في كل ما لا يسمح به كتابهم المقدس .

وهذه الطائفة تعتقد أن « كريشنا » هو « الكيان الأعلى للألوهية »، الذى يسكن جميع الأرواح. وهم يعتقدون أنه بالتركيز على كريشنا، وبالغناء الدائم بأدعية هار كريشنا (والتى تتكرر ۲۰۰۰ مرة فى كل يوم) وبإنكار الملاذ المادية والحسية، يستطيع الإنسان أن يتحرر من الدورة اللانهائية للمرض والشيخوخة والموت والبعث. إشاعة هذه الرسالة فى جميع أنحاء العالم، هو الواجب الأساسى للحركة.

و « جوروكولا »، مدرسة الطائفة فى مدينة دالاس بتكساس، أصبحت مزدهرة. ويأتى للعيش فيها أبناء الأتباع من جميع أنحاء أمريكا، ولكى يتعلموا كل شىء عن هذه الحركة. وصغار الأطفال يتعلمون اللغة السنسكريتية، ومبادئ الإنجليزية، والحساب، وبعض الجغرافيا والتاريخ، لكن هذا كله يأتى من خلال عقيدة كريشنا.

كريشنا.. و١٦ ألف زوجة!

مؤسس هذه الجماعة، هو سوامى برابوبادا الذى ولد فى كلكتا بالهند عام ١٨٩٦. وقد اعتزل عمله الناجح فى تجارة الكيماويات، وعائلته، وعلاقاته بالمجتمع، حتى يهب حياته بالكامل من أجل نشر الوعى بكريشنا. وفى السبعين من عمره، أصبح عام ١٩٦٥ كاهنا هندوسيا، وسافر إلى الولايات المتحدة.

وفى مدينة نيويورك، بدأ عمله مع المنبوذين من المجتمع وشباب

الهيبى، وبالتدريج استقطب عددا من بينهم. وفى عام ١٩٦٨، افتتح مطبعة خاصة به. واليوم تتطبع فى هذه المطبعة حوالى نصف مليون نسخة من المجلة التى يصدرها شهريا. ويؤمن سوامى برابوبادا أنه جزء من الحلقة المتواصلة التى تصل إلى كريشنا المقدس، من خلال التناسخ الذى يمتد إلى خمسة آلاف عام، والتى بدأت بظهور كريشنا الصبى الراعى صاحب القدرات الخارقة، والذى كانت له ١٦ ألف زوجة !.

وكل الدلائل تشير إلى أن حركة هار كريشنا تشيع ويتزايد نمو عدد أتباعها. وتعتمد الحركة فى تمويلها على عدة موارد متنوعة: مبيعات مصنع البخور الذى تملكه، والذى يحقق ربحا سنويا يصل إلى مليون دولار سنويا، ثم حصيلة جمع الهبات من الشوارع، ويقال إن مركز الطائفة فى نيويورك قد جمع من تلك الهبات ٣٠ ألف دولار فى أحد شهور الشتاء فقط، هذا بالإضافة إلى ما يتبرع به الأغنياء.

سوكا جاكّاى

سوكا جاكاى، هو تجمع لعدد من العامة الذين يمارسون عقيدة «نتشيرين -شو -شو» البوذية. والترجمة العربية لتعبير سوكا جاكاى هى «مجتمع خلق القيم».

تأسست جماعة سوكا جاكاى فى اليابان عام ١٩٣٧، على يد

المعلم ماكيجوتشي نسونيسابارو. ومع ذلك فإن تقاليد العقيدة البوذية لم تكن ظاهرة جديدة في اليابان. إنها واحدة من الطوائف التي تبعت تعاليم القديس البوذي نيتشيرين الذي عاش في القرن الثالث عشر، والذي كان زعيما وطنيا متحمسا، هاجم جميع المؤسسات الدينية والسياسة المعاصرة في اليابان. وقد أحيت سوكا جاكاي الوطنية القوية التي عرف بها نيتشيرين، ومبدأ تكريس الحياة لتحسين الحياة السياسية والاجتماعية.

وقد قادت تعاليم نيتشيرين إلى قيام العديد من الطوائف، ولكن لم يكتب لها أن تحظى بالإحياء الكامل الأقوى إلا بعد ظهور سوكا جاكاي، في هذا القرن.

اضطهاد الحكومة اليابانية

وخلال الحرب العالمية الثانية، عانت سوكا جاكاي كثيرا من اضطهاد الحكومة اليابانية. وعندما توفي ماكيجوتشي في السجن عام ١٩٤٤، قام تلميذه المقرب تودا جوساي، عام ١٩٤٦، بإحياء الحركة، وأعطاها اسمها الحالي. ثم خلفه، منذ ذلك الحين وحتى اليوم، إيكيدا دايساكو في قيادة الجماعة.

في عام ١٩٦٤، أنشأت الجماعة حزبا سياسيا يابانيا، عرف باسم «كوميتو»، وهي تعني «الحكومة النظيفة». وكحزب وطني قومي،

حصل على عدد من المقاعد فى كل من المجلسين النيابيين. وقد عارض الحزب الثراء الفاحش وإعادة تسليح اليابان.

وفى عام ١٩٧٠، واجه حزب كوميتو هجوما حادا، بدعوى سعيه إلى إقامة حكومة فاشيستية، وإلى جعل سوكا جاكاى الدين الرسمى للدولة. وفى أعقاب هذا الاتهام، تم فصل الحزب عن جماعة سوكا جاكاى، وقد حدث ذلك فى ديسمبر من عام ١٩٧٠.

ما بين عامى ١٩٥١ و ١٩٥٧، نما عدد العائلات المنتمية إلى سوكا جاكاى من ٣ آلاف إلى ٧٦٥ ألف عائلة. وقدر عدد أعضاء الجماعة عام ١٩٧٤ بحوالى عشرة ملايين عضو.

أكاديمية فى أمريكا

فى عام ١٩٦٠، أنشأت سوكا جاكاى أكاديمية نتشيرين -شو -شو فى الولايات المتحدة. وكانت المنظمة تسعى بنشاط إلى اجتذاب غير اليابانيين إلى عضويتها، وفى عام ١٩٦٧، أعلنت قيادة الأكاديمية فى مدينة سانت مونيكا، بكاليفورنيا، انضمام ١٥ ألف إلى عضويتها، يتضمنون عددا من الشخصيات الرياضية والفنية المرموقة. وفى الثالث من يوليو ذلك العام، قام ما يزيد عن ١٥ ألف عضو بمسيرة ليلية، يحملون فيها الأضواء، بمدينة نيويورك. كما نظمت الجماعة عرضا للألعاب النارية فى سنترال بارك.

وقد لقى أعضاء الجماعة فى نيويورك نقدا من البوذيين أتباع عقيدة الزن، باعتبار أن الجماعة تشجع الانشغال بالرغبة فى تحقيق أهداف دنيوية، أكثر من التنوير الذاتى، والذى يتضمن التحرر والانعتاق من جميع الرغبات.

مستقبل هذه العقائد

ما هو مستقبل هذه العقائد والجماعات ؟ ، ولماذا نراها متكاثرة في هذا العصر ؟ .

في « كتاب الغرائب » ، يقول لورنس جاد « طالما بقيت ظروف عدم الاستقرار والخلط سائدة في عالمنا ، وطالما بقيت هذه الظروف التي تضطر عددا كبيرا من الناس إلى البحث عن ملاذ من المشاكل التي لا حل لها ، فإن انتعاش وازدهار العقائد سيزداد . ففي هذا المناخ ، تصعب مقاومة إغراء اندفاع الإنسان نحو هذه التنظيمات ذات القوة ، التي تعفي الأتباع من عبء اتخاذ القرار ، وتمدهم بإشباع ذواتهم » .

هذه العقائد والجماعات تبدو مغرية ، في البيئة التي يفقد فيها نظام الحياة ، الحكومة والمجتمع والأسرة والدين التقليدي ، القدرة على سد احتياجات الفرد . ويرى لورنس جاد أن إغراء الجماعة يكمن في صغر حجمها ، وفي انتقائيتها . في معظم العقائد تكون شخصية القائد الجارفة

الكاريزمية، من أهم عناصر الجذب، وأثر هذه الشخصية يكون قويا فى الجماعة الصغيرة، ومخففا فى الجماعات الأكبر.

* * *

والحق أن ما استعرضناه في هذه السلسلة، وما لم يسمح المجال باستعراضه، من هذه العقائد الشعبية والجماعات، يثبت أنه مع تنوعها فى كل شيء، إلا أنه بإمكاننا أن نرصد بعض السمات المشتركة، فى معظمها:

(١) أنها تلبي احتياجا حيويا لدى أفرادها، لا توفره طبيعة الحياة فى مجتمعهم، إلى حد استعدادهم للتضحية بالمال والحياة فى سبيلها.

(٢) هذه الجماعات تتكاثر فى زمن التغيرات العميقة الشاملة، كالتى نعيشها هذه الأيام. نتيجة لاهتزاز الأسس التى قامت عليها حياتهم، دون أن تكون الأسس الجديدة قد استكملت تشكلها.

(٣) توفير الانتماء القوى، ودعم إحساس الفرد بذاته، وبأهميته، وبدوره فى الحياة.

(٤) ما تضفيه السرية من إثارة، وشعور بالأهمية.

(٥) ما توفره هذه الجماعات من إعفاء للعضو من مسئولية اتخاذ القرارات، فى وقت تتعقد فيه حياته، ويصبح اتخاذ القرار محنة.

(٦) معظم الجماعات تسعى إلى تغييب عقول الأعضاء، إما

بالمخدرات والخمور ، أو بعمليات غسيل المخ المنظمة التى تقوم بها قيادة الجماعة ، عن طريق إضعاف علاقات العضو الأسرية والمجتمعية ، وإضعاف إحساسه بالملكية عن طريق استيلاء الجماعة على أمواله وممتلكاته ودخله ، والتركيز على أن القيادة تقدم إليه الحل الوحيد للحياة .

المحتوى

الصفحة

ظهر فى سلسة «أغرب من الخيال»

سر الأطباق الطائرة .
النبات يحب ويتألم .
الهرم وسر قواه الخفية .
رجل يعرف كل الأسرار .
٣٠ ظاهرة خارقة .
لعنة الفراعنة .
عجائب بلا تفسير .
تفسير الأحلام والتنجيم .
التخاطر والسحر واليوجا .
الخروج من الجسد .
أحلام اليوم حقائق الغد .
عجائب العقل البشرى .
هذا الغد العجيب .
أسرار حيّرت العلماء .
معجزات العلاج .
العالم سنة ٢٠٠٠ .
الأشباح المشاغبة .
معنى الأحلام .

رقم الإيداع ٥٩٤٦ / ٩٨
الترقيم الدولي 7 - 0459 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصري - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت . ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



- مأساة الانتحار الجماعى لجماعة « بوابة السماء » .
- الشاعر بيتس ينضم الى جمعية « الفجر الذهبى » السحرية .
- الساحر كراولتى . وشهر العسل المثير فى القاهرة .
- السحرة المعاصرون . وشائعة حفلات الجنس الجماعى .
- يد الشيطان على فتيات قرية سالم . وحكايات تيتوبا .
- دخول الرئيسين واشنطن وفرانكلين الى الحركة الماسونية .
- « العائلة » . ومذبحة فى منزل الممثلة شارون تيت .
- الجنة الزائفة التى يدخلها أتباع الصباح قبل مهامهم الانتحارية .
- « السفاحون » . وأتباع إلهة الموت الهندية كالى . وجرائمهم الشنيعة .
- القس رنس « المحبوب » يتزوج عذارى الجماعة ويحرم الجنس على الأتباع .
- « فرسان الهيكل » . ولعنة القس دى مولاى التى تحققت .